

الجمع بين القراءتين قراءة الوحي وقراءة الكون

الطبعة الثانية
١٤٢٩ هـ - مايو ٢٠٠٨ م



الإدارة، ٩ شارع السعادة - أبراج عثمان - روكسى - القاهرة

تليفون وفاكس: ٢٤٥٠١٢٢٨ - ٢٤٥٠١٢٢٩ - ٢٢٥٦٥٩٢٩

المكتب، ٢ شارع البورصة الجديدة - قصر النيل - القاهرة

تليفون وفاكس: ٢٢٩٢٨٠٧١ - ٢٢٩١٢٠٧٢

Email: < shoroukintl@hotmail.com >

<shoroukintl@yahoo.com >

دراسات قرآنية

(٢)

الجمع بين القراءتين قراءة الوحي وقراءة الكون

د. طه جابر العلوانى



المحتويات

الصفحة	الموضوع
٩	مقدمة
١٤	- الأمر بالقراءتين
١٧	- القراءة الاولى
١٩	- القراءة الثانية
٢٠	- قراءة الكتابين
٢٠	- القراءة إنسانية
٢١	- وحدة البشرية
٢٢	- أخطاء القراءات المنفردة وسلبياتها
٢٢	- إهمال القراءة الاولى
٢٥	- إهمال القراءة الثانية
٢٧	- منهجية القرآن المعرفية
٢٩	- محددات ومعالم
٣٠	- دور قراءة السنة
٣٢	- الجمع بين القراءتين ومدخله - مدخل قراءة القرآن
٣٤	١ - مدخل تنزيل القارئ للقرآن على قلبه
٣٥	٢ - مدخل الإيمان بالوحدة البنائية للقرآن المجيد
٣٦	٣ - مدخل الانطلاق من الإيمان بوحدة السورة
٣٧	٤ - مدخل القيم العليا وهي التوحيد والتزكية والعمران

٣٩	٥ - مدخل العلاقات بين الله سبحانه والإنسان والكون المسخر
٣٩	٦ - مدخل التصنيف الموضوعي
٤١	٧ - مدخل البحث في المناسبات
٤٣	- مداخل قراءة الكون
٤٣	مدخل الخلق
٤٥	أ- معرفة مبدأ الخلق
٤٩	ب- مدخل العناية
٥٣	ج- مدخل النظر في الواقع الموضوعي الخارجى
٥٤	- كيفية الجمع بين القراءتين
٥٩	١ - إعادة بناء الرؤية الإسلامية المعرفية
٥٩	٢ - إعادة فحص وتشكيل وبناء قواعد المناهج الإسلامية
٦٠	٣ - بناء منهج للتعامل مع القرآن المجيد
	٤ - بناء منهج للتعامل مع السنة النبوية المطهرة بهيمنة القرآن
٦١	وتصديقه
	٥ - إعادة دراسة وفهم التراث الإسلامى بهيمنة وتصديق
٦٥	قرآنيته
	٦ - بناء منهج للتعامل مع التراث الإنسانى المعاصر وقراءته فى نور
	النموذج المعرفى القرآنى والرؤية الإسلاميّة
٦٦	الكلية
٦٧	- المهمة قرآنية وكذلك عالمية
٧٠	- منهجية القرآن والمصير الإنسانى
٧٥	- خاتمة
٧٧	- قائمة المراجع
٨٣	- التعريف بالمؤلف وبعض آثاره

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾

[الرحمن: ٣، ٤]

مقدمة

الحمد لله رب العالمين . نستغفره ونستعينه ونستهديه . ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا . ونصلّي ونسلّم على سيدنا محمد عبد الله ورسوله ، وصفيّه وخليله ، وخيرته من خلقه ، وعلى آله الطيبين الطاهرين ، وصحابته الأكرمين ، ومن تبعه واهتدى بهديه إلى يوم الدين .
أما بعد : فإنّ القرآن المجيد كلام الله - تبارك وتعالى - أنزله على قلب رسوله الأمين ، ونبیّه الكريم - صلى الله عليه وآله وسلم - ليكون للعالمين نذيراً .

فهو النور المبين ، والذكر الحكيم ، والكتاب العزيز . يُخْرِجُ مِنَ الْفِتَنِ ، وَيَشْفِي الصُّدُورَ ، وَيُنْقِذُ مِنَ الْخَسْرِ : ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾
[المائدة : ١٦] .

فهو الهادى إلى الرشد ، والمنقذ من الضلالة ، لا تنقضى عجائبه ولا يَخْلُقُ من كثرة الرد . قال الإمام محمد بن إبراهيم الوزير (ت : ٨٤٠هـ) وهو يؤكد على ضرورة الرجوع إلى القرآن المجيد ، وحثّ رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - على ذلك وتقديمه على كل ما عداه : قال « . . . فلنقتصر على حديث مشهور يذكر بأمثاله » .

وذلك مما رواه السيد الإمام أبو طالب - عليه السلام - فى أماليه،
والحافظ المحدث أبو عيسى الترمذى^(١) فى جامعه من حديث الحارث بن
عبد الله الهمذانى صاحب علىّ - عليه السلام - قال: مررت فى
المسجد، فإذا الناس يخوضون فى الأحاديث. فدخلت على عليّ - عليه
السلام - فأخبرته فقال: أو قد فعلوها؟ قلت: نعم. قال: أما إننى
سمعت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يقول: «ألا إنها
ستكون فتنة». قلت: فما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: «كتاب الله فيه
نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم. هو الفصل ليس
بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله
الله. وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم،
وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا يشبع منه العلماء،
ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضى عجائبه. هو الذى لم تنته الجن إذ
سمعتته حتى قالوا: إنا سمعنا قرآناً عجيباً يهدى إلى الرشد، فأمنا به. من
قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه
هُدى إلى صراط مستقيم». انتهى هذا الحديث الجليل. وقد رواه السيد
الإمام أبو طالب - عليه السلام - فى أماليه بسند آخر من حديث معاذ بن
جبل - رضى الله عنه.

(١) أخرجه الترمذى فى جامعه: (١٧٢ / ٥) وفى الطبقات التى رقت فيها الأحاديث
رقمه (٢٩٠٨) فى باب «فضل القرآن» وقد استدلل به صاحب «إيثار الحق...» فى
كتابه «ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان» ص ١٥.

عن رسول الله^(٢) - صلى الله عليه وآله وسلم - بنحوه . ورواه أبو السعادات ابن الأثير في جامع الأصول من طريق ثالثة، من حديث عمر ابن الخطاب - رضى الله عنه .

قال^(٣): ولم يزل العلماء يتداولونه، فهو مع شهرته في شرط أهل

(٢) مارواه معاذ عن عليّ جاء في (مجمع الزوائد: ٧ / ١٦٤).

(٣) والمروى بطريق عمر تحده في «جامع الأصول: الحديث رقم (٦٢٣٢)» لكنه ورد فيه عن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - وقال المحقق السيد عبد القادر الأرنؤاط معلقاً «كذا في الأصل - أي: عن عبد الله بن عمر، وفي المطبوع: عمر بن الخطاب» ولم يرجع . وفيه اختلاف يسير عن رواية الإمام أبي طالب والترمذى، حيث جاء في هذه الرواية قول ابن عمر: «... نزل جبريل - عليه السلام - على عهد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فأخبره: أنها ستكون فتن، قال (أي: رسول الله لجبريل): «فما المخرج منها يا جبريل؟» قال: كتاب الله... إلخ، وقد أخرجه رزين وذكره ابن كثير في فضائل القرآن بمعناه عقب حديث الحارث من حديث عبد الله بن مسعود، وقال (أي: ابن كثير): رواه أبو عبيد القاسم بن سلام في كتابه «فضائل القرآن» وقال: هذا غريب من هذا الوجه .

وفي سنن الدارمي أورد الحديث في (٢/ ٥٢٣) برقم (٣٣١٥) عن عبد الله وبدأه بقوله: «إن هذا القرآن مأدبة الله فتعلموا من مأدبته ما استطعتم...»، وختمه بقوله: «فأتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته...». وأما باللفظ الذي معنا فقد أوردته الدارمي في الحديثين رقمي (٣٣٣١) و(٣٣٣٢). وقد علق المحققان عليه بقولهما: «رواه الترمذى في كتاب فضائل القرآن، باب (١٤) ما جاء في فضل القرآن، حديث رقم (٢٩٠٦) ٥/ ١٧٢-١٧٣. وأحمد في المسند (١/ ٩١). وأبو داود الطاليسى وأبو بكر الأنبارى في كتاب «الورد» نه عن إخباره عن عليّ. كما في التذكرة لقرظي ص (٤٨) بتحفتي. قال ابن كثير في فضائل القرآن (ص ١١-١٢): «لم ينفرد بروايته حمزة بن حبيب الزيات، بل قدره محمد بن إسحاق، عن محمد بن كعب القرظي، عن الحارث الأعور، =

الحديث متلقى بالقبول عند علماء الأصول، فصار صحيح المعنى في مقتضى الإجماع والمنقول والمعقول. وقد أودع الله - تبارك وتعالى - كتابه الشرعة والمنهاج فأنقذنا به من الضلالة، وفتح للعالمين به أبواب رحمته وسبل هدايته. فحمداً له سبحانه على هدايته، والشكر له على نعمائه وعنايته، أغنانا به - جل شأنه - عما سواه. وكفانا به عما عداه:

= فبرئ حمزة من عهده، على أنه وإن كان ضعيف الحديث، فإنه إمام في القراءة. والحديث مشهور من رواية الحارث الأعور، وقد تكلموا فيه، بل قد كذبه بعضهم من جهة رأيه واعتقاده (أى: لا من جهة روايته وصدقه)، أما أنه تعمد الكذب في الحديث فلا والله أعلم. وهذا الحديث إن لم تتسع لتصحيحه شروط المحدثين، فلا أقل من أن يكون أثراً صحيح المعنى من كلام أمير المؤمنين على - رضى الله عنه-، وقد وهم بعضهم في رفعه، وهو كلام حسن صحيح، على أنه قد روى له شاهد عن عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه- أ. هـ. والآية رقم ٢ من سورة الجن.

قلت: وفي بعض الشروح حددت «فتنة الحديث أو الأحاديث» بأنها الافتتان برواية «الأحاديث» أو «السنن» عن تلاوة القرآن المجيد ودوام الرجوع إليه، وبعضهم حملها على الأحاديث والأخبار مطلقاً، ففي كل ذلك انشغال عن القرآن وقد يستفيد القائلون بذلك بأحاديث النهى عن كتابة السنن والتأكيد على عدم الانشغال بغير القرآن. (قال طه) -: ولكن الفرق كبير بين انشغال بأحاديث نبوية مرفوعة صحيحة تأتي على سبيل البيان بأنواعه للقرآن المجيد، وبين مطلق الحديث. وفرق كبير بين انشغال لطلب بيان والانشغال بها على سبيل الاستعاضة عن القرآن، والاكتفاء بها بحجة اشتغالها أو تضمناها للقرآن أو بأى حجة أخرى.

لقد استقرت المذاهب الفقهية في العهد الرابع من عهود الفقه وركدت حالة الاجتهاد المطلق، وعكف المقلدون على مذاهب الأئمة، والكتابة في مناقبهم، والعمل على ضم الناس إليهم كل إلى مذهبه وإمامه. وجعل بعضهم أقوال أولئك الأئمة مثل نصوص الشارع يدخلها التعارض والترجيح والنسخ وما إليها، أما في عصر الصحابة وبخاصة - عصر الشيخين - فلم يشغلهم شيء عن كتاب الله، ولما انتهت سنة أربعين للهجرة برزت اتجاهات فقهية وبدأ الناس ينشغلون بها. =

﴿ أَوْ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (العنكبوت : ٥١).

فنسأله - تعالى - كما أنعم علينا بالقرآن العظيم ، والرسول الكريم - صلى الله عليه وآله وسلم - أن يجعل القرآن ربيع قلوبنا ، ونور أبصارنا وبصائرنا ، وأن يعلمنا منه ما جهلنا ، ويذكرنا منه ما نسينا ، ويجعله حجة لنا ، لا علينا ، وقائدًا لنا إلى الجنة . إنه سميع مجيب .

= وحين كان عبد العزيز والد عمر والياسنة (٨٣ هـ) فكر في جمع السنن ، وهو مشروع استكمله ولده عمر بن عبد العزيز ، لتكون السنن فقهاً بديلاً عن الفقه الخلافى يرجع الناس إليها لثلاث تفرق بهم السبل الفقهية ، ولكن الكثيرين انشغلوا بالسنن عن القرآن المجيد بحجة اشتغالها عليه وارتباطها به ، وجعلوا من السنن شواهد لأقوال أئمة الفقه ، ثم انشغلوا بفقه الأئمة عن السنن ، وصاروا يتداولون أقوال الأئمة ويفرعون عليها حتى بدا وكان الشريعة هي أقوال هؤلاء الأئمة ، بحيث سوغ الكرخنى الخنفي لنفسه أن يقول في أصوله : « أصل : كل آية تخالف ما عليه أصحابنا فهي إما مؤولة أو منسوخة » .

« أصل : واعلم أن كل حديث يخالف ما عليه أصحابنا فهو إما مؤول أو منسوخ » !! ومهما يقال في تأويل ذلك أو التخفيف منه فإنه قول جريء يدل على أن التعصب للمذاهب قد بلغ مستوى مَرَضِيًّا بحيث صار الأصل تابعاً للفرع ، بل محكوماً به . ولذلك فإن إعادة بناء الأئمة واستئناف شهودها الحضارى وشهادتها على الناس لا يمكن أن تعود إليها ما لم تتجاوز هذه الإصابات الخطيرة ، وترد الناس إلى القرآن المجيد مصدراً منشئاً وكاشفاً عن الأحكام وغيرها عما تناوله أو تعلق به فقد أنزله الرحيم الرحيم « حَكَمًا وَحَكَمًا وَشَفَاءً لِلْمُؤْمِنِينَ » أمَّا « الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ » [النحل : ٨٨] . وما اختلف فيه أو عليه لا يد فيه من الرجوع إلى السنة النبوية التي صدرت عن رسول الله ﷺ ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل : ٦٤] .

وعلى هذا فالمعنى الوارد في هذا الحديث أو الأثر معنى صحيح يشهد له صريح الكتاب وصحيح السنة . والله أعلم .

الأمر بالقراءة تين

لقد أمر الله تعالى نبيه - صلى الله عليه وآله وسلم - فى مفتتح نزول القرآن وعند بدء الوحي بقراءتين . فقال تعالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) ﴾ [العلق : ١ - ٥] . وبما أن القرآن ليس فيه تكرار ولا ترادف، ولا تحتاج آياته الكريمة إلى استعمال المؤكدات، فإن كل كلمة من كلماته - وإن بدت مرادفة أو مماثلة لأختها - فإنها تشتمل على معنى آخر إن لم تدل عليه بلفظها وبلاستعمال القرآنى لها فإنها تدل عليه فى سياقها وسباقها^(٤) .

(٤) بعد «السياق» فى القرآن هو المنتج للدلالة والموجه إلى المدلولات، ومع شدة عناية البلاغيين وكثرة حديثهم عنه غير أنهم لم يعرفوه تعريفاً جامعاً مانعاً، وكانهم عدّوه مما يدرك بدون تعريف، أو أنهم اكتفوا بوصفه وبيان آثاره، واستغنوا بذلك عن تعريفه . والأصوليون قد أبدوا اهتماماً شديداً بدلالة السياق . فالسياق يرشد إلى تبين المعمل، وتعيين المحتمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد . . . وذلك لأن دلالة النصوص نوعان : حقيقية وإضافية، فالحقيقية تابعة لقصد المتكلم وإرادته وهذه الدلالة لا تختلف . والإضافية تابعة لفهم السامع وإدراكه، وجودة فكره وقريحته وصفاء ذهنه ومعرفته بالألفاظ ومراتبها . وهذه الدلالة تختلف اختلافاً متبايناً بحسب تباين السامعين فى ذلك . . . «راجع بدائع الفوائد لابن القيم (٩١٤-١٠) وإعلام الموقعين (١/٣٥٠-٣٥١) وقد أوردت ابتنا د . رقية تفاصيل مهمة فى «دلالة السياق» وتقسيمات قديمة وحديثة له أوضحت هذه الدلالة بما لا يستغنى الباحث فى هذا المجال عن مراجعته، فراجع ذلك فى رسالتها القيّمة «أثر العرف فى فهم النصوص : قضايا المرأة أمّوذجاً» رسالة دكتوراه طبع ونشر وتوزيع دار الفكر فى دمشق عام ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٣ م ص ٢٦٠-٢٦٥ . وكذلك رسالة صديقتنا د . إبراهيم أصبان التى نال بها درجة الدكتوراه بعنوان «دلالة السياق فى القرآن» لم تطبع طبعة عامة .

وموقعها^(٥). وذلك من دلائل إعجازه الذى تعالى به على كلام المخلوقين. ولذلك فإن صيغة الأمر بالقراءة الذى جاء مرتين فى هذه الآيات الخمس لا تعنى التوكيد أو الترادف أو التكرار كما ذهب إلى ذلك بعض المفسرين^(٦).

بل تدل على أمرين بقراءتين، لكل منهما معناها المراد بها، ولكل منهما خصائصها، ومجالها ومتعلقها، ومناهجها وكيفياتها وميادينها. يعضد هذا ويعززّه. أنّ الأمر بالقراءة فى الآية الأولى اقترن ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ﴾

(٥) أما السباق: فهو لصيق جداً بالسباق، وكبير الأثر فى إدراك المناسبات، وهو يبط الكلمات والآيات والسور بما يسبقها، وحساباتها حلقة فى سلسلة مترابطة.

(٦) نحو القرطبي الذى عدّ «اقرأ» الثانية توكيداً، وجعلها تمام الآية الأولى (١١٩ / ٢٠) والألوسى (١٨٠ / ٢٩). ويشير عدم ذكر فعل «اقرأ» الثانية لدى الطبرى إلى حساباتها مرادفاً، أو توكيداً فراجع (٢٥٣ / ٩٢) منه. أما الرازى فقد أعطى لكل من الفعلين معنى يخصه فقال - ناقلاً عن بعضهم: «اقرأ - أولاً - لنفسك. والثانى للتبليغ أو الأول للتعليم من جبريل والثانى للتعليم. أو اقرأ فى صلاتك والثانى خارج صلاتك» فانظر تفسيره (١٦ / ٣١). وقال البغوى فى تفسيره «معالم التنزيل»: «اقرأ: كرهه تأكيداً، ثم استأنف . . . وربك الأكرم» (٩ / ٤) أما ابن كثير فلم يذكر عن «اقرأ» الأولى والثانية شيئاً (٨ / ٤٥٩) ط دار الشعب القاهرة. وذهب ابن الجوزى فى زاد المسير (٩ / ١٧٦) إلى أنها للتوكيد كذلك. وابن عاشور فى تفسيره التحرير والتنوير (١٣٣ / ٢٠) أورد ثلاثة أقوال: الثانى منها: « . . . أن الباء فى «باسم ربك» للمصاحبة، والمجورور فى موضع الحال من ضمير «اقرأ» الثانى مقدماً على عامله للاختصاص - أى: اقرأ ما سيوحى إليك مصاحباً قراءة تلك اسم ربك. فالمصاحبة مصاحبة الفهم والملاحظة لجلاله، ويكون هذا إثباتاً لوحدة الله بالالهية . . . ». وهذا هو الأقرب لما ذهبنا إليه. وأما الطوسى فقد اعتبر الباء زائدة، ومفعول «اقرأ اسم ربك» وأما «اقرأ» الثانية فمفعولها المقدر هو «القرآن» فانظر التبيان (١٠ / ٣٧٩).

وكانت صلة الموصول- «الذي» - هي الخلق في : ﴿... الَّذِي خَلَقَ
 *خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ فهي أمر بتحصيل فعل القراءة وممارسته مع
 الاستعانة بالله - تعالى - فهو ربك الذي يعلم أنك ﴿مَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ
 كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، ولذلك ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا
 تَنْسَى﴾ [الأعلى: ٦]. خلافاً لأى قارئ آخر معرض للنسيان والخطأ.
 فاقراً باسمه هو، واستعذبه من الشيطان الرجيم. ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى
 النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [النحل:
 ٦٨]. والذي خلقك من علق، وخلق النوع الإنساني - كله - منه قادر
 على أن يخلق فيك فعل القراءة، ولو لم تكن قارئاً من قبل. وكل ما
 عليك أن تقرأ ما سنوحيه إليك وهو القرآن، والذي خلقك ورعاك
 وأنشأك من علق، وخلق كل شيء فقدره تقديراً قادر على أن يعلمك
 القراءة، كما علم آدم الأسماء كلها، وكما علم أباك إبراهيم وسواه من
 الأنبياء والرسل. فاقراً باسمه وعلى اسمه ومعه وفي ذلك تنبيه من بداية
 الأمر على انفصاله - صلى الله عليه وآله وسلم - عن قومه الذين كانوا
 يبدأون أفعالهم مستعينين باللوات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، وكلها
 أوثان يصنعونها بأنفسهم، ولا تصنعهم، ويخلقونها ولا تخلقهم.

كما أن في قوله تعالى : ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ تنبيهاً إلى وجوب
 قراءة الخلق قراءة تبدأ بقراءة الذات الإنسانية من بداية الخلق إلى نهاية
 الحياة بأطوارها كلها. فمنهج القراءة في الخلق ينطلق من قراءة النفس

باتجاه الكون والآفاق . فتلك هي القراءة السليمة المنهجية . والبدء بتوحيد الربوبية ، لا بتوحيد الألوهية ، فيه تنبيه إلى خطوة منهجية أخرى ، هي الانطلاق من المحسوس باتجاه المجرد ، لأن الإنسان أقدر على ملاحظة المحسوس منه على ملاحظة المجرد وإدراكه . فالخلق ، وبدائع صنعه ، ونظمه وسننه وقوانينه هي المحسوس المشاهد أو المدرك بأى وسيلة من وسائل الإدراك . والمجرد هو «التوحيد» بأنواعه ، فهو ما يتوصل بصحيح النظر فى ذلك المحسوس إليه . فإدراك المحسوس ليس نهاية المطاف ، بل هو المقدمة لإدراك المجرد . وهنا يمكن أن يدرك الإنسان «فعل الغيب» فى الواقع : فيصل إلى الربط الضرورى بين الغيب بكل مكوناته ، والإنسان والكون .

القراءة الأولى

الأمر الأول بالقراءة - إذن - : هو أمر بقراءة^(٧) باسم الله أو على اسمه - تعالى - ومعها ، لهذا الوحى النازل الذى سيتتابع نزوله حتى يتم قرآنًا كريمًا مجيدًا مكنونًا مفصل الآيات ، محكمًا مترابطًا متماسكًا متناسبًا

(٧) راجع تفسير الرازى فقد ضعف ما ذهب إليه جل المفسرين من القول بزيادة «الباء» فى «باسم ربك» ورجح أن الباء ليست زائدة وذكر لها ثلاثة أوجه (٣١ / ١٣ ، ١٤) ط دار الفكر . وانظر التحرير والتنوير (٢٠ / ٤٣٦) وذكر أن «الباء» للاستعانة أو المصاحبة أو بمعنى «على» ، وذلك قريب مما ذكر الفخر . ومثله فى روح المعانى للأوسى (٢٩ / ١٧٩) ط مكتبة دار التراث - القاهرة بدون تاريخ . وقال الطباطبائى فى الميزان : «إن الباء للملابسة» (٢٠ / ٣٢٣) .

متشابهًا تتلوه يا محمد على الناس ، وتبيّنه لهم ليتعلّموا منه الحكمة والهداية والرشد فتزكو نفوسهم ، وتطهّر حياتهم ، ويهدوا به في أداء مهام الاستخلاف ، والقيام بواجب الائتمان ، وحق العمران ، وحين رد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بأنه ليس بقارئ^(٨) لا شك في أنّه فهم المطلوب ، وهو قراءة ما سيملى عليه وهو لا يعرف القراءة والكتابة ، وليس له من العلم ما يقرؤه ، ولذلك فإنه تعالى قدر ربط القراءة ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ ، فكأنّه قال له : إنك لن تكون وحدك في أداء هذا الفعل الذى لا تعرفه ، بل سيكون معك ربك الذى أعطاك الكثير وهو قادر على أن يعلمك كيفية أداء ما أمرك به . ويزيد على ذلك : كما علم آدم الأسماء كلها ، وكما علم إبراهيم وموسى وعيسى وسواهم من النبيين والرسل - عليهم السلام - من قبلك ، فاقراً باسمه واستعن به فى القراءة يعنك ويصحبك ويكن معك فيها ، وفى بيانها وتعليمها وإقامة الحجة بها على الناس .

وذكر الرب - جل شأنه - الإنسان ، وذكر خلق الإنسان بالذات فيه طمأنة لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بأنّ منحه القدرة على القراءة ليس بالأمر الصعب على ربّه الذى خلق كل شىء ، وخلق

(٨) إشارة لحديث «بدء الوحي» الذى أخرجه البخارى فى باب : كيف بدأ الوحي إلى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وقول الله - جل ذكره - : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ [النساء : ١٦٣] . الحديث رقم (٢) و (٣) .

الإنسان من علق، (بل هو عليه هين كما أن في ذكر الخلق تهيئة لذهنه الرشيد ونفسه الشريفة - صلى الله عليه وآله وسلم - لبيان النوع الثاني من القراءة .

القراءة الثانية

ألا وهي قراءة الكون والنظر في الخلق، ومعرفة ما دونته البشرية من فهم له، وتجارب فيه بأقلامها؛ فهذه القراءة هي التي صاغ القرآن المجيد بحسبها «دليل الخلق ودليل الإبداع، والتكليف بالنظر العقلي في الوجود، والنظر في آثار الأمم السابقة، ومعرفة ما حدث لها». فبذلك تكون القراءة المأمور بها قراءتين: قراءة في الكون المخلوق، وكل ما يتعلق به من عالم الخلق، والتشويق بما في ذلك تراث الأمم الذي دونته وآثارها، فبالقراءتين تدرك الفروق بين الأمم التي استفادت بالوحي واتبعت، واستنارت به، وبين الأمم التي تجاهلته، وتعاملت مع الطبيعة أو الكون - وحده - دون استنارة بهداية الوحي. أو أهملت الكون والتجارب البشرية وعبر التاريخ ودروسه. وقراءة الوحي المنزل على قلب رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم، بحجة الاكتفاء بالوحي والاستغراق فيه. فمن أراد أن يقرأ الوحي بدقة وتدبر فإنه لا غنى له عن قراءة الكون وما فيه بالنظر في خبرات الأمم السابقة وتجاربها، ومعرفة الحضارات الغابرة وكيف سادت ثم بادت أو اندثرت. فلقد اعتنى القرآن به عناية فائقة، ولفت الأنظار إلى ذلك في سور كثيرة، وآيات كثيرة، لما في ذلك

من عبر ودروس وعظات تجعل السالف قادراً على إفادة الخالف مهما طال الأمد فيما بينهما. وتجعل الخالف يرى نتائج أفعال من سبقوه فيدرك أن أفعاله - أيضاً - سيكون لها من الآثار مثل ما لأفعال من سبقوه إن خيراً فخير وإن شراً فشر. وفي ذلك تكريس لمبدأ «المسئولية الفردية، والأثر الجماعي أو المجتمعي» فيتعلم الإنسان بذلك كيفية الانضباط في أفعاله وتصرفاته، ويتهيأ عقله ونفسه لقبول «مبدأ الجزاء والعقاب والثواب» ويتعلم النظر فيما يرث عن الآباء نظر الفاحص الناقد المعبر فيتخلص من هيمنة مبدأ «الآبائية» وتقليدها ومتابعتها على الحق وعلى الباطل، ويدرك كذلك أن للأثم التي خلت ما كسبت، ولنا ما نكسب ولا يغنى أحد عن أحد من الله شيئاً.

قراءة الكتابين

فهما - إذن - كتابان تجب قراءتهما - معاً - للخروج من إसार الأمية بكل أشكالها ومعانيها: كتاب منزل متلو معجز وهو القرآن، وكتاب مخلوق مفتوح وهو هذا الخلق والكون والتجارب البشرية فيه، ومنه التعامل مع الإنسان نفسه، فهو جزء من الخلق وابن شرعي للطبيعة: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: ٥٥].

القراءة إنسانية

وهذه القراءة تكون ابتداءً من الإنسان، فهو الذي لا بد له من قراءتهما

- معاً - لتوجد لديه المعرفة العمرانية الكاملة، التي تمكن الإنسان من الوفاء بالعهد، والقيام بمهام الاستخلاف، وأداء حق الأمانة، والقيام بمقتضيات العمران، والنجاح في اختبار البلاء. وهي معرفة لا تقوم على التلقى والتلقين وحدهما، بل على الأخذ عن الغير - أيضاً - من سابقين ولاحقين بالمراجعة والمطالعة وقراءة الكتب وكتابتها وتناقل الخبرات والمعارف بين البشر وعدم الزهد في المعرفة من أى وعاء خرجت، والتعامل المنهجى معها.

وحدة البشرية

وفى ذلك تنبيه على «وحدة البشرية» وضرورة استفادة اللاحق بميزات السابق من المعرفة والخبرات والتجارب، والتواصل معها، واستعمال القلم - الذى علم الله به، وجعله وسيلة للمعرفة وتبادلها وإنمائها وتناقلها - ثم ما يمن الله - تعالى - به من معارف تنقدح بها العقول من مستنبطات ومخترعات وغير ذلك مما يندرج تحت قول الله تعالى: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥]. فهناك - إذن - مصدران للمعرفة الإنسانية - لن نثل التأكيد على ترابطهما - يتضافران فى توصيل الإنسان إلى معارف الشهود الحضارى، والقيام بمهام العمران والاستخلاف فى هذا الكون، ولا بد للإنسان من الجمع بينهما، وعدم الغفلة عن أى منهما؛ فيفهم القرآن العظيم ومدلولاته بالخلق وبالوجود والسنن

والقوانين الضابطة لحركته وحركة ما فيه، ويفهم الكون ويهتدى في أداء مهام الخلافة فيه والعمران، والقيام بمقتضيات الأمانة بالقرآن المجيد ونور هدايته. ولا بد من قراءة المصدرين - معاً -، وتنفيذ الأمر بالقراءتين سويّاً: قراءة الوحي النازل المتمثل في الكتاب الكريم الذى حدّد غاية الحق من الخلق وبين تلك السنن والقوانين الضابطة لحركة الوجود. إضافة إلى ما اشتمل عليه من الشرعة والمنهاج. والحقائق الأساسية التى تحتاج إليها البشرية. وقراءة فى الكون وأفاقه والنفس البشرية وما يصلحها أو يفسدها. والفترة، وما ينميها، وما يطمس عليها.

أخطاء القراءات المنفردة وسلبياتها

إذا تبين هذا يتضح أن القراءتين فى الوحي وفى الكون فريضة، لأنهما أمران إلهيان فيهما كل ما فى الأمر الملزم من شروط وصفات، والجمع بينهما ضرورى، إذ بدونه يقع الخلل.

إهمال القراءة الأولى

فمن تجاوز القراءة الأولى فى الوحي النازل إلى النبيين، واستغرق استغراقاً كلياً فى القراءة الثانية التى تمثل علم الكون أو معارف الطبيعة، منقطعة عن الله - تعالى - فقد العلاقة بالله، وتجاهل الغيب، وانطلق بفلسفة إنسانية مستقلة وضعية منبثة عن الله، عوراء قاصرة فى

مصادرها، تحاول أن توحد بين الإنسان والطبيعة بإطلاق. وتعدُّ الخالق والغيب كله مجرد ما وراثيات أو ميتافيزيقا يمكن تجاهلها أو تجاوزها. وإذا كانت - هناك - قوة غيبية قد مارست خلقاً أو إيجاداً، فقد تكون مارسته بقوة الدفعة الأولى، ثم تناسته أو نسيته ليستمر الكون بعد ذلك فاعلاً ومنفعلاً بشكل آلى كما ذهب إلى ذلك أرسطو^(٩) في القديم، ونيوتن^(١٠) وغيره في الحديث. وحين يحلو لبعض هؤلاء المتفلسفين أن يتذكروا الباري - جل شأنه - فإنهم قد يتذكرونه بشكل حلولى يزعم أصحابه أن الله - تعالى - قد حل في قوى الطبيعة ذاتها، وذاب فيها ليتحول إلى جزء حال فيها ليتهاوا بعد ذلك إلى «المادية الجدلية» - التى أنكرت الخالق تماماً، وطرحت بدائل له من اتجاهات النمو عبر خصائص التطور المادى المعقد ليشعر الإنسان باندماجه الكامل بالطبيعة بحسبانها كائناً طبيعياً، وهنا يبدأ الإنسان بالشعور بالغنى أو الاستغناء عن خالقه - جل شأنه -، لأنه لم يعد يرى غير الطبيعة أمامه فهى كل شىء، وهى وراء كل شىء، وهو فى ظاهر الأمر قادر على قهرها بالعلم: فلا يراها وهى مُسَخَّرٌ مقهورة بسنن الله تعالى، بل يراها كوناً مستقلاً أى امتداداً غيبياً،

(٩) أرسطو: فيلسوف شهير ومعلم يونانى يُعدُّ من أهم فلاسفة اليونان القدماء، ترجم فلاسفة المسلمين تراثه الفلسفى، والمنطقى، وأعجب الكثيرين منهم، حتى إنهم قد لقبوه «بالمعلم الأول». (٣٨٤-٣٢٢) ق.م.

(١٠) نيوتن، إسحاق: فيزيائى إنكليزى صاحب قانون الجاذبية العام وقوانين الحركة. (١٦٤٢-١٧٢٧) م.

وَأَنذَاكَ لَا يَشْعُرُ بِأَنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - قَدْ سَخَّرَهَا لَهُ ، وَأَنَّهُ الْخَالِقُ لَهُ وَلِهَا ، بَلْ يَرَى الْإِنْسَانَ أَنَّهُ الْفَاعِلُ الْمُبْدِعُ ، الْمُتَعَدِّدُ الْقُدْرَاتِ ، الْمَسِيطِرُ عَلَى الطَّبِيعَةِ ، الْمَفْجَرُ لِكَوْمَانِ مَا فِيهَا : وَفِي ذَلِكَ انْحِرَافٌ فِي الرَّؤْيَةِ وَالتَّصَوُّرِ خَطِيرٌ . فَالْكَوْنُ مَهِيئاً مَسْخَرٌ لِلْإِنْسَانِ ، وَالْإِنْسَانُ مَزُودٌ بِالْقُدْرَاتِ التَّمَكِينِيَّةِ الذَّهْنِيَّةِ وَالْعَقْلِيَّةِ وَالْعِلْمِيَّةِ الَّتِي تَمَكِّنُهُ مِنْ تَسْخِيرِ الْكَوْنِ ، لِيَقُومَ بِأَمَانَةٍ الْاِسْتِخْلَافِ ، وَحِينَ يَغْفُلُ الْإِنْسَانُ أَوْ يَعِشُو عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ ، وَلَا يَرَى الْقُدْرَةَ الْإِلَهِيَّةَ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ ظَاهِرَةً بِهَدَايَةِ الْوَحْيِ يَشُدُّهُ الشُّعُورُ بِالْاِسْتِغْنَاءِ ، وَالْإِحْسَاسُ بِالْقُدْرَةِ وَالْإِبْدَاعِ إِلَى أَنْ يَجْعَلَ مِنْ عِلَاقَتِهِ بِالْكَوْنِ عِلَاقَةً تَسَلُّطٌ وَقَهْرٌ وَصِرَاعٌ وَاسْتِعْلَاءٌ ، لَا اِسْتِخْلَافٌ . وَيَفْقَدُ بِوَصْلَةِ الْاِهْتِدَاءِ ، وَتَفْقَدُ عُنَاوِرَ الطَّبِيعَةِ عِلَاقَتَهَا الْوَدِيَّةَ بِالْإِنْسَانِ ، وَيَفْقَدُ الْإِنْسَانُ بِدَوْرِهِ شُعُورَهُ بِأَنَّهُ الْمَخْلُوقُ الْمُسْتِخْلَفُ الْمُؤْتَمِنُ عَلَى الْكَوْنِ كُلِّهِ ، وَأَنَّ كُلَّ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الْمَخْلُوقَةِ مَسْخَرَةٌ لِهَذَا الْمُؤْتَمِنِ وَالْمُسْتِخْلَفِ ، وَكِلَاهُمَا فِي الْمَخْلُوقِيَّةِ وَالْعِبَادِيَّةِ لِلَّهِ - تَعَالَى - سَوَاءٌ ، ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصَّافَاتُ : ٩٦] . فِإِذَا فَقَدَ هَذَا التَّصَوُّرَ فَقَدْ يَتَّخِذُ الْوُجُودَ - فِي نَظَرِهِ - شَكْلَ الْقُرَى الْمُتَصَارِعَةِ الْمُتَنَابِذَةِ ، وَيَتَّخِذُ الْإِنْسَانَ الْغَافِلَ - مِنْ نَفْسِهِ وَهَوَاهُ - شَكْلَ الْمُتَأَلِّهِ الْمَسِيطِرِ بِالْعِلْمِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، فَيَمْجِدُ ذَاتَهُ وَيَتَّخِذُ إِلَهَهُ هَوَاهُ ، وَيَتَوَهَّمُ أَنَّ لَهُ أَنْ يَسْتَمِدَّ قِيَمَهُ مِنْ ذَاتِهِ وَمِنْ الطَّبِيعَةِ . وَالذِّينَ وَالْإِيمَانَ - نَفْسَهُ - قَدْ يَتَحَوَّلُ فِي إِطَارِ هَذِهِ الْقِرَاءَةِ الْمُنْفَرِدَةِ الْعَوْرَاءِ إِلَى شَيْءٍ يُوظِّفُهُ مِنْ شَاءِ سَاعَةٍ يَشَاءُ لِتَلْبِيَةِ رَغْبَةٍ ، أَوْ لِأَدَاءِ خِدْمَةٍ . وَهَنَا يَحِقُّ

عليه القول : ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيْطْفَىٰ * أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ [العلق : ٦ ، ٧] ،
 فيقع في الاستبداد والطغيان على أخيه الإنسان . وتحدث كوارث البيئة ،
 ويظهر التلوث والفساد في البر والبحر والجو بما كسبت أيدي الناس ،
 ويختل التوازن وتظهر أمراض الانحراف والشذوذ في المعمورة ، فقارات
 يعمها الجوع والخراب وأخرى تعمها الأمراض بكل أشكالها ، والجرائم
 بكل أنواعها ، وتسود المعيشة الضنكة : ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ
 مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه : ١٢٤] .

وقد يُقنع الغافلون عن ذكر الرحمن أنفسهم بأن ما يحدث ضريبة
 طبيعية لازمة لا مناص للراغبين في التمتع بالمعطيات الحضارية من
 احتمالها ودفع قيمتها الفادحة . لكن ذلك خداع للنفس ، وزخرف من
 القول فالعمران الربانيّ تحكمه قيم الحق والخير والجمال معاً ، فإن وقعت
 بعض الأعراض الجانبية أمكن احتواؤها وتلافي آثارها بتوفيق الله
 وهدايته ؛ لأنّ العمران المهتدى لا ينفك عن « المرجعية الإلهية للكون » .

إهمال القراءة الثانية

أما إهمال القراءة الثانية في الكون والطبيعة المسخرة ، أى إهمال قراءة
 الوجود والكون والاقتصار على قراءة الوحي وحده منقطعاً منبثاً عن
 الوجود ، فإنه يؤدي إلى نفور من الدنيا ، واستقذار لها ولما فيها ، يشل
 طاقات الإنسان العمرانية والحضارية ، ويعطله عن أداء مهام الخلافة

والأمانة والعمران، وبحول بينه وبين التمتع بنعمة التسخير. ويعطل فكره، وينقص من قيمة فعله، بل قد يلغى إدراكه لفعله فلا يرى الإنسان نفسه فاعلاً في شيء، ولا يرى لوجوده في الحياة معنى عمرانياً، وكل هذه الأفكار منافية تماماً لمنهج القرآن العظيم.

كما أن تجاوز القراءة الثانية في الكون وإهمالها، أو عدم جمعها مع الأولى يؤدي إلى ظهور العجز الإنساني الحضارى، وتعطل طاقات الإنسان، وإلى خلط عجيب بين قضايا عالم الغيب وعالم الشهادة كما تقدم.

وقد يتوهم المقتصرون على القراءة الأولى - قراءة الوحي منفرداً - أن تنزيه الباري - جل شأنه - لا يتم إلا إذا ألغيت قيمة الفعل الإنساني، ونفيت إرادة الإنسان واختياره، واستلب استلاباً لاهوتياً كهنوتياً من دوره، واقتنع بأنه مسيرٌ في كل شيء. وبذلك ينتهى دوره الاستخلافي العمرانى، وتستحيل قدراته إلى عجز مطلق. وقد يستغرق في المحرمات معتزلاً عن ذلك بأنه مسيرٌ. وتلك صفة من صفات أهل الشرك.

والناظر في مقالات الإسلاميين في الماضى^(١١)، وكتب الفرق الإسلامية يجد في مقالاتهم العجب العجاب في قضايا الخلط بين الفعل

(١١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تُخْرِصُونَ ﴿١٤٨﴾ [الأنعام: ١٤٨].

الإنسانى والفعل الإلهى والإرادة الإنسانية وقضايا الاختيار والعلل والأسباب وسواها، ذلك الخلط الذى أدى إلى كثير من الغبش، والاضطراب فى النظام المعرفى الإسلامى .

إذن لا بد من الجمع بين القراءتين: قراءة الوحى، وقراءة الوجود، وبناء العقل الإنسانى بهما - معاً - لثلا يقع الإنسان فى أى من ذينك الطرفين الذميمين .

منهجية القرآن المعرفية

من هنا كان ما سميناه بـ«منهجية القرآن المعرفية» دعامة أساسية^(١١) للجمع بين القراءتين، وضرورة معرفية وحضارية لا على المستوى الإسلامى وحده، بل على المستوى العالمى - كله - للخروج من المأزق المعرفى المعاصر^(١٢) والأزمة الفكرية العالمية المعاصرة .

(١٢) نعى بـ«منهجية القرآن المعرفية» المنهج الذى يقدمه لنا القرآن المجيد فى شكل محددات ورسن قوانين يمكن استنباطها من استقراء آيات الكتاب الكريم تلاوة وتدبراً وترتيلاً وتنزيلاً وتفكيراً وتعقلاً وتذكراً، ثم التعامل مع هذه المحددات تعاملًا يسمح لنا بأن نجعل منها محددات تصديق وهيمنة، وضبط لسائر خطواتنا المعرفية، ومنها: تصحيح مسار المنهج العلمى، وإخراج فلسفة العلوم الطبيعية والاجتماعية من مضايق النهايات التى تتوقف عندها الآن. وفى مقدمة هذه المحددات «الجمع بين القراءتين» و«الوحدة البنائية للقرآن»... إلخ.

(١٣) الذى يتردى فيه المنهج والمعرفة على حد سواء، فأزمة «المنهج وفلسفة العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية» أصبحت تقض مضاجع العلماء .

فبعد تكريس البعد المنهجي في التفكير واجه الفكر الغربي^(١٤) والحضارة الغربية مشكلة تحديد الصياغة المنهجية لذاتها ومعرفتها صياغة تستند إلى تطور الغرب العلمى بكل جوانبه فلم تصل فى ذلك إلى ما يشفى العليل، ويروى الغليل. ولقد قامت الماركسية فى محاولة لإيجاد هذه الصياغة فى إطار «المادية الجدلية». وقد انهارت الماركسية بانهايار الاتحاد السوفيتى قبل أن يجد الغرب البديل المعرفى والمنهجي لها لتبقى الحضارة الغربية دون صياغة فلسفية بديلة، تضبط حركتها، وتستوعب مشكلات تطورها، وتجعلها قادرة على تقديم إجابات عن «الأسئلة النهائية» المعلقة - التى يشيخ علماء اليوم بوجوههم عن مراجعتها. فبدأت الحضارة الغربية تلجأ إلى خلق الأزمان لتحافظ على توترها، لأنه - أى: هذا التوتر - صار من أهم وسائل حمايتها من التفكك.

أما أزممتنا نحن العرب والمسلمين فهى أشد وأنكى، فنحن شركاء فى الأزمة العالمية من ناحية، لأن علاقتنا بها لم تعد علاقة برأية أو هامشية - كما قد يتوهم البعض - فالحضارة المعاصرة قد نجحت من خلال غزوها الفكرى والثقافى والمؤسسى أن تفرض علينا وعلى العالم كله منهجها ووعيتها العلمى والمفاهيمى للوجود وللحركة الكونية. كما فرضت على الجميع رؤيتها للتاريخ والعلم والمعرفة والحضارة والثقافة والتقدم

(١٤) فالأزمات الفكرية ألت إلى نوع من الاستفحال لم تعد المناهج البشرية قادرة على معاجته، كما لا يخفى على مراقب لما يجرى فى العالم المعاصر. وراجع مقدمة «العالمية الإسلامية الثانية» محمد أبو القاسم حاج حمد.

والتخلف وغيرها . فما حقيقة «المنهجية القرآنية» التي نقترحها حلاً لأزمنا المعرفية والفكرية وأزمة العالم معنا؟

محددات ومعالم

تبرز محددات «منهجية القرآن المعرفية» (*) وتحقق من قراءة الكتباين : القرآن والكون، وتؤسس على مقابلهما والكشف عن التكامل والتفاعل بينهما، وإبراز المنهجية فى البحث والاكتشاف انطلاقاً منهما :

الكتاب الأول : هو كتاب الوحي المقروء، ونعنى به «القرآن»، لأنه وحده الكتاب الكونى، الذى يعادل الوجود الكونى وحركته ويستوعبهما بأبعاده الكونية .

والكتاب الثانى : هو كتاب الكون المتحرك الذى يتضمن ظواهر الوجود كافة . فالقرآن العظيم والكون البديع كلاهما يدل على الآخر، ويرشد إليه، ويقود إلى قواعده وسننه، فالقرآن يقود إلى الكون ويمارس دوره فى الهداية فيه، ويوظفه بوجوه كثيرة، لتسخير مكوناته، ولتوضيح قضاياها، وتأييد دعاواه، والكون أيضاً يقود إلى القرآن ليسقط أسئلته

(*) للأخ الراحل محمد أبو القاسم حاج حمد كتاب مطبوع يحمل هذا العنوان . وقد اعترض الأخ نصر محمد عارف على إضافة «المعرفية» إلى المنهجية أو وصف «المنهجية بالمعرفية» .

عليه، ويستعين به لإرشاد الإنسان إلى كيفية التعامل معه، واستثمار
تسخيره. ومعرفة هذا وإدراكه والعمل بمقتضاه هو ما أطلقنا عليه «الجمع
بين القراءتين»: قراءة تبدو غيبية تنشأ في إطار الوحي وتنطلق باتجاه
الكون. وقراءة موضوعية تنطلق من الكون وعناصره باتجاه الوحي.
فقراءة الوحي بمثابة تنزُّل من الكلى إلى الجزئى، فتدرك بقدر ما تتيح
القدرات البشرية النسبية من الفهم لتنزلات الكلى وكيفياتها. وقراءة
الكون تقدم القضايا والمسائل، والأسئلة الجزئية وترفعها إلى سُدّة الوحي
ليهدى الإنسان القارئ في الاثنين إلى الإجابات السليمة من المصدر
الذى يهدى لتى هى أقوم. وتبدو للإنسان القارئ - آنذاك - جدلية
العلاقة بين المصدرين: الوحي والكون أو علاقة «الفهم التكاملى المتبادل
والجدل والتفاعل» بينهما بأوضح ما تكون.

دور قراءة السنة

هنا يبدو دور قراءة السنة والسيرة فى كليتهما ضرورياً مع استحضر
أبعاد الهيمنة والتصديق القرآنيين مع الاستيعاب والتجاوز، وتكون قراءة
الكون بمثابة تطلُّع وعروج من الجزئى باتجاه الكلى المتمثل بالوحي،
وتطبيقات رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - له فيقرأ ذلك كله
وفق قدرات البشر النسبية على فهم الظواهر، فلا يقع الفصام المزعوم بين
معطيات الوحي ونتائج المعرفة الموضوعية، إذا فهمت السنة والسيرة فهماً
دقيقاً فى هذا الإطار.

وإضافة إلى فهم السنة والسيرة في كليتهما، وجمعهما مع القرآن الكريم في الطريق إلى «الجمع بين القراءتين»، نحتاج إلى أن ندرك أن . . . القرآن قد نزل به الروح الأمين على قلب رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥] فنزوله كان على القلب .

ولذلك نهى - صلى الله عليه وآله وسلم - أن يحرك لسانه به بادئ ذي بدء: ﴿ لَا تُحْرَكُ بِهِ لِسَانُكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَأَذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿﴾ [القيامة: ١٦ - ١٨] . وما ينزل على القلب فإنه ينزل ويراد له الفهم والتدبر والاستيعاب والاستقرار في القلب، ولذلك فإن التالي للقرآن المجيد إذا أراد فهم ما يقرأ، وإدراك معانيه، ومس مراد الحق منه، فعليه أن ينزِّله على قلبه، ويدرك معانيه ببصيرته .

وعلى التالي الذي يريد أن يبلغ في تلاوته مستوى «حق التلاوة»: أن يدخل إلى رحاب القرآن، وهو على يقين من أنه سوف يجد فيه الجواب الشافي عن كل ما يريد معالجته إذا نزَّله على قلبه وتلاه حق التلاوة، ورتَّله ترتيلاً، وتدبره وتعقله وتفكر بما فيه وتذكره .

ومن قرأ سورة من القرآن، أو نجماً من نجومه أو آية من آياته فقد فتح لبصيرته نافذة الفرقان على آفاقه الرحبة الواسعة .

أما من قرأه، ووقف معه بكلّيته وفي إطار وحدته البنائية من حيث هو واحد كل أو مجموع كان في حقه فرقاناً. والفرقان معنى جليل واسع يفرق الإنسان به بين الخير والشر والحق والباطل والصواب والخطأ، فتكون لدى القارئ التالى المتدبر قدرة أو ملكة أو حاسة تمكنه من التمييز فى ذلك - كله - وتقييم أقواله وأفعاله وحركاته وخطراته وأفكاره ونواياه وجل تصرفاته ووزنها بذلك الفرقان. وعندما يحدث للإنسان ذلك يقال له: «استفت قلبك وإن أفتاك المفتون وأفتوك». فالقرآن يكون بمثابة «النموذج المعرفى الكلى» للإنسان القارئ التالى المتدبر للقرآن فى كليته. وفى هذا الإطار نستطيع أن نفهم تشديد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - على أصحابه بالألّا يكتبوا عنه شيئاً إلا القرآن. وتأكيدهم عليه: بأن من كتب شيئاً غير القرآن فعليه أن يمحوه.

الجمع^(١٥) بين القراءتين؛ ومدخل قراءة القرآن

هنا سنحاول أن نعهد لبيان كيفية «الجمع بين القراءتين»، وذلك ببيان

(١٥) إن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - لم يقتصر على الأمر بعدم تدوين الأحاديث والأخبار والسنن، بل جاوز - صلى الله عليه وآله وسلم - ذلك إلى النهى الواضح الصريح عن كتابتها، بل والأمر بمحو ما كتب منها. وكذلك فعل أصحابه من بعده، وبخاصة الشيخان أبو بكر وعمر - رضى الله عنهما - حيث شدّدا فى النهى عن التحديث. ومن جاءهم بحديث فإنهما كانا يصران على أن يأتي بمن يعزز ما روى ويشهد بأنّه سمع ذلك معه من فى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - مما جعل =

بعض المداخل المهمة لقراءة كل من القرآن والكون، نستعين بها على
منهج التعامل مع «الجمع بينهما». ولنبدأ بمدخل قراءة القرآن:

= جمهرة الصحابة يعرضون عن التحديث والرواية. ولذلك فإننا نجد كثيراً من الأمور
المتكررة حين رويت جاءت متنوعة، مختلفة الروايات، مع كثرة تكرارها، وإمكان نقلها
بالتواتر مثل ألفاظ الأذان والإقامة والبسطة والحيلة: «حى على الصلاة» أو «حى على
خير العمل». والإقبال الذى حصل بعد الأمر بجمع السنن من عبد العزيز سنة (٨٣) هـ
ثم من ابنه عمر بن العزيز - رضى الله عنه - سنة (٩٩) هـ إنما حصل لأن عمر بن عبد
العزيز رأى فى جمع السنن ووضعها بين أيدي المسلمين بديلاً عن الاختلاف فى الفقه،
فإن عنصر الإلزام بالمرورى عنه عليه الصلاة والسلام أقوى من الالتزام بفقهاء الفقهاء.
وذلك أكثر تأثيراً فى جمع الكلمة، وتقليل الاختلاف. فهى لم تجمع لتكون بديلاً عن
القرآن بل لتكون «فقهاً نبوياً» بديلاً عن فقه الفقهاء.

أما لماذا نهى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - عن تدوين أى شىء غير القرآن،
وتبعه أصحابه الشيخان فى ذلك، فذلك لكى يبنى عقول الناس ونفوسهم وقلوبهم أولاً
بالقرآن - وحده - فيصبح القرآن مستقراً فيها، عنه تنبثق نماذجهم المعرفية، ومنه ينطلقون
فى بناء مناهجهم العلمية، فيصبحون قادرين على قياس كل مصدر كلى أو جزئى، وكل
نوع من أنواع المعرفة إليه، ومحاكمته إلى الرؤية القرآنية ونقده وتنقيته بمقتضاها وفقاً
لها. إضافة إلى تقرير وترسيخ «حاكمية القرآن» فى قلوبهم وعقولهم. ولم يكن السبب
ما ذكره البعض من «خوف الاشتباه والتداخل بين القرآن والأحاديث المروية»، فذلك أمر
مستبعد جداً أن يقع فيه العرب وهم أهل البلاغة والفصاحة الذين يدركون الفجوة
الواسعة بين آيات الكتاب الكريم وأى شىء سواه بما فى ذلك أحاديث أفصح من نطق
بالضاد عليه الصلاة والسلام - ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - لا ينطق عن
الهوى، فما دام قد فعل ذلك ونهى عن كتابة غير القرآن، فذلك يعنى أنه لم يفعل ذلك
إلا لحكمة بالغة علمها الله، وأوحاها إليه - صلى الله عليه وآله وسلم - أو توقف
مباشر، وإلا فالعرب لا يخفى عليهم الفرق بين النطق انترائى وسواه، مهما كانت درجة
بلاغته وفصاحته.

كما أن القرآن المجيد يحوى أصول السنن، وتستدعى آياته السنن ولا عكس. وقد نص
الإمام الشافعى على ذلك بقوله: «فى الفقرة ٤٠، ٤١، ٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٥، ٤٦، =

١- إن تنزيل القارئ للقرآن على قلبه - بالشكل الذى أوضحنا - مدخل أساسى من مداخل فهمه، والفقهاء فيه . ولعله أهم مداخل «الجمع بين القراءتين» فالله - تبارك وتعالى - قال: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَيَّ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٤]. وهناك مداخل أخرى للدخول إلى عالم القرآن المجيد، منها:

= وفى ٤٨ «توج ما قاله فى تلك الفقرات بقوله: فليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة إلا وفى كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها. (مقدمة الرسالة ١٧ - ٢٠).

كما أن العلماء بعد الأجيال الثلاثة قد تساهلوا، خاصة فى «جيل الرواية» بنقل السنن بالمعنى، لأن القرآن يصدق عليها ويهيم مثل تصديقه وهيمته على تراث النبيين من قبل رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - كافة، فليس هناك كبير خوف من تصرف بعض الرواة بالألفاظ ونقلها بمقتضى فهمهم لها، فإن وراءها مصفاتيْن دقيقتين: أولاهما: أن يكون للمرورى أصل فى القرآن وفى اللغة. والثانية: أن تكون مما يصدق القرآن عليه ويهيم، وبذلك يمكن تصحيح ما قد يخطئ فيه فهم الراوى، سواء أكان ذلك بسبب مستوى قدرته على الفهم والاستيعاب، أم بسبب لغوى، أم بسبب القراءة لمعانى الحديث وأسباب وروده أم أى مؤثر آخر.

والكتابة وسيلة توثيق دقيقة (ولا شك ولا يضير العرب الذين فضلوا المحفوظ على المقروء ذلك)، وهى أدق من الحفظ فى الذاكرة وإذا طرأ على الكتابة تصحيف أو ما إليه، فذلك مما يمكن تداركه وتصحيحه، وليس كذلك الخطأ فى الذاكرة إذا استقر، وجرى تداوله شفاهاً.

وهذا الذى نقوله يوضح أن النهى النبوى عن كتابة السنن لم يكن لبيان عدم حجيتها كما يذهب إلى ذلك المستشرقون والمنازعون فى الاحتجاج بالسنن، ومنهم أولئك الذين يطلقون على أنفسهم لقباً لا يستحقونه فيسمون أنفسهم «بالقرآنيين»، وما هم «بقرآنيين» فلو أنهم كانوا «قرآنيين» لما وسهمهم نفى «حجبة السنّة» الثابتة بصريح القرآن المجيد. ولأدركوا أن النزاع الذى نشب فى جيل الرواية واشتد فى جيل الفقهاء لم يكن نزاعاً فى «ذات الحجية»، إذ الحجية أمر معلوم من الدين بالضرورة، ولكن النزاع وقع فى حجة =

٢- مدخل الإيمان «بالوحدة البنائية للقرآن المجيد»، وقراءته مع

استصحاب هذا المدخل . والوحدة البنائية تجعل التالى المترال المتدبر

= «الإخبار بالسنة» الذى هو الإسناد، «فالإخبار بالسنة» هو ما يمكن أن يوصف بالقطع والظن، والحجية وعدمها، ويرد- بمقتضى الحكم عليه وبنقد المتن - الحديث أو يقبل . أما السنة الثابت صدورها عنه - صلى الله عليه وآله وسلم- فلا نزاع فى حجيتها بين المؤمنين .

كما أن ما قررناه مستفاد من المنهج الذى نزل القرآن الكريم به، حيث تنزل القرآن - كما هو معروف - نجومًا استغرق نزولها اثنين وعشرين عامًا وخمسة أشهر واثنين وعشرين يومًا من حياة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، وقال جل شأنه فى ذلك : ﴿وَقَرَأْنَا فَرَقَانًا لِّقْرَاءَةٍ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكِّثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ [الإسراء : ١٠٦] .

وقد اعترض المشركون على هذا المنهج فى التنزيل، وسجل القرآن اعتراضهم على مذا، وناقشهم فيه وبين الحكمة التى خفيت عليهم فى تنزيله بذلك المنهج، فقال جل شأنه : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان : ٣٢] . وللحكمة ذاتها : - تثبيت الأئمة بالقرآن - أراد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أن تشغل عقول وقلوب المسلمين بالقرآن وحده - حتى تثبت به عقولهم وقلوبهم، وتستقر به نفوسهم، وتخالط بشاشته أفئدتهم وضمائرهم، ولا يزاحم آياته فى انفعالهم به أى شئ آخر . وبذلك كان القرآن لذلك الرعيل عقلاً يفكرون به، ونفساً يحيون بها، ووجداناً تشكل به عواطفهم ومشاعرهم، وأعيناً يبصرون بها كل ما حولهم، ومنهجاً ضابطاً لحركات العقول والنفوس والتصرفات يعصم الإنسان عن الوقوع فى الخطأ فيها، وإذا مس الشيطان شيئاً من ذلك تذكروا فإذا هم مبصرون للحقيقة أو لوجه الصواب فيها . والأحاديث والآثار التى وردت فى النهى عن كتابة السنن ومناقشتها من وجهة نظر الأشاعرة تجدها فى كتاب شيخنا عبد الغنى عبد الخالق «حجية السنة» (٣٩٠ وما بعدها) وكذلك فى كتاب د . محمد عجاج الخطيب «السنة قبل التدوين» طبع مكتبة وهبة للطباعة والنشر فى القاهرة/ الطبعة الرابعة/ ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ / الباب الرابع من الكتاب «متى دون الحديث»؟ (ص ٢٩٣ - ٣٨١) حيث جمع المؤلف - جزاه الله خيراً - ما يتعلق بالتدوين وناقش مختلف الآراء والأقوال الواردة فى ذلك . وقد نتفق مع المؤلف فى جل ما تناوله وقد نختلف فى بعض الاستنتاجات معه، لكن يبقى ما أورده مما لا يستغنى الباحثون فى هذا المجال عنه .

يطوف في رحاب القرآن ناظراً في آياته - كلها - باحثاً عن جميع الروابط وشبكات العلاقات بينها ليدرك ما يقرأ، ويفهم ما يتلو^(١٦).

٣- مدخل الانطلاق من الإيمان «بوحدة السورة»، وهو مدخل لا يختلف كثيراً عن مدخل «الوحدة البنائية»، لكن التركيز فيه يكون على سورة واحدة يتخذها القارئ المتدرب بمثابة وحدة متميزة. وهنا ينطلق في تدبره باتجاه البحث عن عمودها، والأعمدة أو الأوتاد الساندة. ونعني بذلك: أن لكل سورة موضوعاً أساسياً تأتي آياتها - كلها - لتوضيحه وبيانه، وتجليه ما يتعلق به. وتكون الموضوعات الأخرى دائرة حول ذلك الموضوع الأساسي تعززه، وتزيد في بيانه وتوضيحه، فتكون بمثابة الأوتاد المساندة لعمود البيت ودعامته الكبرى. وقد كتب فيه «الإصلاح»^(١٧) دراسة جيدة تحتاج إلى من يبنى عليها، ويتوسع فيها ونبه إلى ذلك الشيخ أمين الخولي^(١٨).

(١٦) لمعرفة تفاصيل المراد «بالوحدة البنائية»، وكيفية استعمالها بحسبانها محددًا منهاجياً ونشأتها وسيرورتها أفردناها بدراسة مستقلة يستحسن الرجوع إليها لفهم هذا المدخل بشكل مناسب وقد نشرت ملخصه في مجلة الكلمة عدد (٤٣) ربيع (٢٠٠٤).

(١٧) راجع كتب الأستاذ عبد الحميد الفراهي الإصلاحى يرحمه الله سلسلة دراسات في التأويل وعلوم القرآن، منها حلقة خصصها للحديث عن «عمود السورة» أكد فيها: أن كل سورة لها عمود لا بد للقارئ المتدبر من الكشف عنه ليدرك معانيها، وما اشتملت عليه من موضوعات. وقد نشرت هذه الدراسات المكتبة الإصلاحية في عليكر في الهند. وأعادتها نشر بعضها «دار الغرب الإسلامى».

(١٨) على ما فى «مستولية التأويل»: ص ١٣٩ وما بعدها للدكتور مصطفى ناصف. =

٤- مدخل القيم العليا، وهى: «التوحيد والتزكية وال عمران»، فهذه القيم الثلاث بلغت من الأهمية مستوى يمكن من القول بأنها محاور القرآن المجيد الأساسية التى تدور سوره وآياته وكلماته - كلها - حولها وتشارك فى العمل على تكريسها وتعزيزها .

فالتوحيد حق الله - تعالى - على عباده أن يؤمنوا بواحديته ووحدانيته، وتفرده فى ذاته وصفاته وأفعاله . ومعظم سور القرآن وجل آياته دارت حول التوحيد لأهميته القصوى، إذ عليه يتوقف كل ما عداه . فهو جوهر العقيدة، وركن الإيمان وعموده .

ثم «التزكية» - وهى المؤهل الأساسى والشامل الذى يجعل الإنسان قادراً على القيام بمهام الاستخلاف، وأداء الأمانة والوفاء بعهده تعالى - وإعمار الأرض ووراثتها فى الدنيا ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] وهى التى تهيبى الإنسان لوراثه الفردوس فى الآخرة: ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١١] .

ثم «ال عمران» - وهو المهمة التى أوكلت للإنسان بعهد الاستخلاف، وهو الغاية التى سخر الله الطبيعة - كلها - للإنسان من أجل تحقيقها،

= القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، ١٣٢٥ هـ ٢٠٠٤ م. وقد أحسن تناول هذا النوع وأتقنه كل من الشيخ الراحل محمد عبد الله دراز فى كتابه «النبأ العظيم» ود. منى أبو الفضل فى كتابها «نحو منهجية للتعامل مع مصادر التنظير الإسلامى» .

والقيام بحققها . ونحن نستمد من سنن الكون وقوانينه ومنها التسخير وال عمران ونستقى كثيراً من الأدلة على وجود الله - تبارك وتعالى - ووحديته في ذاته وصفاته وأفعاله . ويتدبر تلك السنن والقوانين نستنبط ما يتناسب والفطرة التي فطرنا الله - تعالى - عليها فبنى من أدلة «الخلق والإبداع والرعاية والتدبير والتمانع وما إليها» ما يجعلنا قادرين على الاستجابة لنداء الفطرة التي فطرنا عليها، والاستماع والاستجابة إلى نداءات ودعوات المرسلين، فيتظافر القرآن والرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - ومعه سائر المرسلين من خارج، والفطرة الإنسانية من داخل لتحقيق الهداية والتزكية، وبناء العمران الذي هو انعكاس للهداية والتزكية وروح العبادة على الكون والطبيعة المسخرة . وبذلك يتحول الإنسان إلى قائد لمسيرة التسيب التي يمارسها كل شيء في الكون بالتوجيه التلقائي والذاتي عدا الإنسان الذي يمارس ذلك بحريته واختياره . ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً﴾ [الإسراء : ٤٤] .

فكيف نفقه ذلك التسيب؟ نفقهه بالتدبر والتفكر والتعقل والتذكر في خلق السماوات والأرض ﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون﴾

[الأنعام : ٣٨] .

و حين نمارس قراءة القرآن بهذه المداخل سوف تقودنا بشكل مباشر

إلى النظر إلى ما خلفها وما ترتبط به ليظهر لنا المدخل الخامس من مداخل القراءة.

٥- وهو مدخل الولوج إلى رحاب القرآن بمدخل العلاقات بين الله - تبارك وتعالى - والإنسان والكون المسخر . فحين نقول : «الله» فإننا نستحضر بذلك علم الغيب كله . وحين نقول : «الإنسان» فإننا ننبّه بذلك إلى كل ما يتعلق به ابتداءً من «عالم العهد الأول» ، أو عالم الذر» مروراً بعالم الخلق والإبراز للوجود والأمر بالتصدي للمهمة ، وانتهاءً بعالم المآل إلى الجنة أو النار . وحين نقول : «الكون» فإننا نعنى به عالم الخلق أو الأشياء والسنن والقوانين الموجهة ، والمسيرة له ، وتنوع الخلق فيه : من حيوان وبحار وأنهار وشمس وقمر وموجودات ومنها الإنسان نفسه . وذلك يعنى : أننا نبحث عن العلاقات بين الله - تعالى - والإنسان والكون ، وكيفية حدوث الفعل والانفعال أو ما يسمى «بالفاعل» فى كل ما قصه الله - تبارك وتعالى - فى القرآن المجيد ، فنكتسب بذلك وعياً وقدرة تتمكن بهما من تدبر القرآن وتلاوته وترتيبه ، لتعقل به أوضاعنا ، وما نعيشه فى مرحلتنا التى لا تعدو أن تكون حلقة من حلقات تاريخ أسرتنا البشرية الممتدة . ومدخل القيم العليا والعلاقات بين الخالق والمخلوق سوف يكونان خير رفيق لنا فى الطواف فى آيات القرآن المجيد . والله أعلم .

٦- المدخل السادس - مدخل «التصنيف الموضوعى» ، وذلك بعد أن ندوم على قراءة القرآن ، وتدبر أهم الموضوعات التفصيلية التى تناولها ،

وغرن أنفسنا على تحديد موضوعات مثل «الإيمان والكفر والشرك والنفاق والحق والباطل والصلاة والعلم والإصلاح والإفساد وما إليها». ثم نبدأ - بعد القراءات الكاملة - بجمع الآيات التي تتعلق - في نظرنا - بذلك الموضوع، باستقراؤها وتتبعها في آيات القرآن - كلها - دون غفلة عن «وحدة القرآن البنائية» التي تستلزم أن نستحضر القرآن - كله - في دراسة أى موضوع؛ ثم نبدأ عمليات التدبر والتأمل، ونحذف ونضيف إلى أن نظمثن إلى أن ما جمعناه من الآيات هو كل ما يتعلق بذلك الموضوع. على الأنتوقف عن التأمل والتدبر فيها والحذف والإضافة: فبعد فترة سنجد أنفسنا مشدودين إلى القرآن - كله - في كليته ووحدته البنائية، فيزداد فهمنا ووعينا بالقرآن المجيد عموماً. وهنا يمكن أن نستشهد بما نقل عن الإمام الشافعى - يرحمه الله - فقد عمل الشافعى على جمع آيات الأحكام فى القرآن المجيد، وله كتاب يحمل اسم «أحكام القرآن» جمعه البيهقى. وآيات الأحكام معدودة لدى الفقهاء فهى فى تقديرات جمهورهم لا تتجاوز خمسمائة آية، وبعضهم لا يجاوزون بها أربعين ومائتى آية.

لكن الإمام الشافعى بعد أن ركز على هذا النوع من الآيات وجد أن من المتعذر حصر الأحكام فيها. فأشار إلى أن فى الأمثال أحكاماً كثيرة. بل يمكن القول^(١٩): إن فى القصص القرآنى أحكاماً، فالحكم لا تستطيع

(١٩) تشمل الأمثال القرآنية على أحكام وتشريعات، كما تشمل على خلاصات التجارب والخبرات. وإن جاءت على غير ما عهد فى آيات الأحكام والتشريع من أساليب، =

استنباطه، والإلمام بجوانبه كلها بدون معرفة سياقه وعلاقاته - كلها. وقد نبهنا إلى تفاصيل مفيدة إن شاء الله في بحثنا في «الوحدة البنائية للقرآن المجيد». فارجع إليها فيه واربط بين ذلك وهذا المدخل.

٧- المدخل السابع - مدخل البحث في المناسبات. والمناسبات أو التناسب بين الآيات والسور علم دقيق ومهم حاوله كثير من المتقدمين فقاربه بعضهم، وأعلن بعضهم العجز عنه، فتجاوزه إلى المداخل الأيسر.

ويقول الإمام الرازي (ت: ٦٠٦ هـ) «... من تأمل لطائف نظم السور، ويديع ترتيبها علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه

= ولهذا فقد عد الإمام الشافعي الأمثال القرآنية مما يجب على المجتهد معرفته، فقال - وهو يبين مؤهلات المجتهد العلمية «... ثم معرفة ما ضرب فيه من الأمثال الدوال على طاعته، المثبتة لاجتناب معصيته...» فجعلها بذلك جزءاً مما يجب على المجتهد معرفته من «علوم القرآن» كما في الإلتقان (٢/١٣١). وذكر الماوردي «... أن من أعظم علم القرآن علم أمثاله والناس في غفلة عنه... على ما في البرهان للزركشي (١/٤٨٦) والإلتقان (٢/١٣١).

ونقل السيوطي عن الشيخ عز الدين قوله: «إنما ضرب الله الأمثال في القرآن تذكيراً ووعظاً، فما اشتمل منها على تفاوت في الثواب، أو على إحباط عمل، أو على مدح، أو ذم، أو نحوه، فإنه يدل على الأحكام» (الإلتقان: ٢/١٣١).

وقال ابن خلدون الرامهرمزي: «... أمثال التنزيل التي وعد الله - عز وجل - بها وأوعده وأحل وحرم، ورجى وخوف، وقرع بها المشركين، وجعلها موعظة وتذكيراً، ودل على قدرته مشاهدةً وعياناً، وعاجلاً وأجلاً، ولله المثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم...» على ما في مقدمة أمثال الحديث للرامهرمزي، وراجع الأمثال في القرآن الكريم/ لأخيها الراحل د. محمد جابر الفياض - ص ٢٦٦.

وشرف معانيه، فهو - أيضاً - معجز بسبب ترتيبه ونظم آياته» .
ويقول - أيضاً - : «أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات
والروابط»^(٢٠)» .

ويقول القاضى أبو بكر بن العربى من علماء القرن الخامس
(ت: ٥٤٣) : « . . . ارتباط أى القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة
الواحدة متسقة المعانى ، منتظمة المباني علم عظيم . . . »^(٢١) .

ويقول برهان الدين البقاعى صاحب أشهر كتاب فى الموضوع «نظم
الدرر فى بيان تناسب الآيات والسور» : «إن السورة وإن تعددت قضاياها
فى كلام واحد يتعلق آخره بأوله وأوله بآخره ، ويتراعى بجملته إلى
غرض واحد ، كما تتعلق الجمل بعضها ببعض فى القضية الواحدة . ولا
غنى لمتفهم نظم السورة عن استيفاء النظر فى جميعها ، كما لا غنى عن
ذلك فى أجزاء القضية الواحدة . . . » يريد القضية المنطقية وهى عبارة
عن جملة واحدة .

فحين نعلم إلى القراءة المتدبرة بهذا المدخل فإن من الممكن التدرب
عليه بأن نأخذ سورة من تلك السور التى تعددت نجومها ، وتنوعت
موضوعاتها ، وكثرت معانيها . ثم نتبع آياتها آية بعد آية ، ومجموعة بعد
أخرى ثم نتفكر فى بدايتها ومسيرتها وانسيابها حتى نبلغ خاتمها . ونعود

(٢٠) راجع «الوحدة البنائية» مصدر سابق .

(٢١) المرجع نفسه .

من الخاتمة إلى البداية، وننظر في العلاقات بين اسمها وتسويرها لتكون سورة مستقلة، ثم علاقتها بما قبلها وما بعدها فسنكتشف شبكة من العلاقات بينها تجعلنا نشعر أنها نزلت حين نزلت، وكأنها نجم واحد، أو أنها نزلت مرة واحدة.

هذه المداخل هي مداخل مقترحة تمثل حصيلة معايشة للقرآن، ومحاولة للاقتراب منه - وليست - بحال من الأحوال - نهاية المداخل المطلوبة لمقاربة القرآن المجيد، وهي قابلة للإثراء والإضافة، فالقرآن لا تنقضى عجائبه، ولا يخلق من كثرة الرد.

* * *

مداخل قراءة الكون

للكون مداخل للقراءة، كما كان للوحي مداخل للقراءة. ومداخل «قراءة الكون» متعددة كذلك، منها:

* مدخل الخلق

هذا المدخل يقتضى الإيمان التام واليقين الخالص بأن الكون - كله - مخلوق لله - تعالى - عن إرادته صدر، وبكلماته تكوّن، وبتقديره تشيياً: فصار شيئاً مذكوراً.

وأنه - سبحانه - ما خلقه إلا بالحق، وأن كل شيء فيه بقدر ومقدار، وتقدير محدد، وأنه سائر إلى غاية معينة، فلا مجال للقول بالمصادفة أو

العبث أو العدم أو اللاغاية!! وأن كل شيء فيه له علة، كما أن له غاية . والقيام بمهمة الاستخلاف، والوفاء بالعهد الإلهي، والقيام بحق الأمانة، والنجاح في اختبار الابتلاء، والخروج من عهدة التكليف، كل أولئك أمور يتوقف القيام بها على إدراك هذه الأمور، والوعي بها وعياً يجعل منها آيات للحق - تبارك وتعالى - موصلة إليه، منبئة إلى صفات الكمال التي يتصف بها، موجهة للإيمان به، وإدراك عظمته، وفهم حسن تدبيره وحكمته وإعجاز تقديره .

والقرآن المجيد - وهو يدعونا للنظر في الخلق والطبيعة - لا يشرح نفسه مصدرًا للعلم الطبيعي، ولكنه يوجه إلى ذلك للأخذ بيد الإنسان للوصول إلى معرفة الخالق وإدراك وحدانيته، واليقين باتصافه بكل صفات الكمال، وتنزهه عن كل صفات النقصان، وفي ذلك - كله - بناء لطاقت الإنسان الإدراكية وقابلياته العقلية والفكرية، واستعداداته المعرفية، وتحريك لسائر قوى الوعي فيه، وتأهيله للمهام الكبرى التي أوكلت إليه . وإذا كان الوحي يعينه على تحقيق التزكية بكونها ذات أولوية كبرى بعد التوحيد وبه ومعه، فإن النظر في الخلق والطبيعة يعينه على كسب الأهلية لتحقيق العمران، والنظر في الخلق والطبيعة، وهي مسخرة خاضعة لله - تعالى - وبسننه وقوانينه تتحرك أو يتشكل كل شيء فيها فليس الإنسان خاضعاً لها، وليس له أن يغتر بتسخيرها له فيستكبر، ويقول: ﴿ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَيَّ عِلْمٌ عِنْدِي أَوْ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرَ جَمْعًا وَلَا يَسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾

[القصص: ٧٨]، أو يحسب نفسه مقهوراً لها فيشرك، أو قاهراً لها بنفسه فيلحد، ولكنه يراها مسخرة لله خاضعة له. وأن ربه وربها واحد أو كل إلى هذا الإنسان مهمة الخلافة فيها، واستثمارها وإعمارها.

ولهذا المدخل المهم مداخل فرعية يرشد الوحي إليها، منها:

معرفة مبدأ الخلق، وكيفية تكوين الموجودات وأهم وظائفها: ﴿أَو لَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠]. ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا﴾ [زح: ١٥، ١٦] كما يربط بينه وبينها: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ [نوح: ١٧، ١٨]. وهذا المدخل يؤدي - أيضاً- إلى كشف النظام الدقيق للكون وغائية الخلق: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلَهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يَنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ٧٣].

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٦، ١٧].

والإنسان مطالب بأن يتفكر في خلق السماوات والأرض ليدرك ذلك - كله - ويكشف عما في الكون والخلق من دقة ونظام، وسنن حاكمة، وغايات وعقل ويتبين وحدانية الله - تعالى - ويبني تصوراته عن الكون والحياة والإنسان انطلاقاً من ذلك، فيتمكن من تحقيق العمران، وإلاّ

كانت الحياة الدنيا بالنسبة إليه لهواً ولعباً، وعبثاً يتنزه الخالق عنه :
﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون : ١١٥].

كما يكتشف الإنسان بتدبرُّ هذا المدخل أنَّ هذا النظام الدقيق المحكم لا
يعنى أن الخلق خالد، أو أنه مستمر دائم لا نهاية له، بل هو محكوم بأجل
مسمى، فدقة نظامه، والبدائع التي اشتمل عليها، واتساعه وعظمته لن
تمنحه صفة الخلود. ﴿أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾
[الروم : ٨].

وكونه سائراً إلى نهاية وأجل مسمى لا يزيل عنه صفة الحق، الذي
خُلِقَ به وقام عليه . ولأنَّ الإنسان جزء من الخلق وابن شرعى للطبيعة فلا
ينبغي له أن يغفل عن أنه يجرى عليه ما يجرى عليها : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَجَادِلُونَ
فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ
بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْبَرَ مِمَّنْ خَلَقَ النَّاسَ
وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر : ٥٦ ، ٥٧]. وهم إن علموا شيئاً
وهم في حالة كفر بالوحي أو انفصال عنه فإنما ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم : ٧].

والتفكر في هذا المدخل وتدبره بعناية يؤدِّي بالإنسان كذلك - إلى
إدراك ذلك التلازم العجيب الذي أوجده الخالق، البارئ، المصور - جل
شأنه وعزّت قدرته - بين العلم والإيمان . وأن العلم حين ينفصل عن

الإيمان قد يفقد صفة «العلم» وقد يكون ضرره أكبر من نفعه : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الروم : ٥٦].

لقد عمل القرآن المجيد على بناء أمتن وأقوى وأفضل العلاقات بين الإنسان والعالم المخلوق لله ، والمسخر له لئلا يقع بينهما تنازلاً أو تصارع ، أو علاقات مضطربة فتضيع حكم كثيرة قد لا تؤثر في تسخير الطبيعة أو الكون الخاضع لسنن لا تبدل لها ، ولكنها تحرم الإنسان من تلك المشاعر السامية - في الحد الأدنى - وهي المشاعر التي تجعله يحسُّ بحبِّ واحترام بيئته ، وما فيها ومن فيها فيحقق السلام النفسى والذانى ، ويحقق السلام مع كل ما حوله ويدرك قدر نعم الله التي لا تحصى عليه حين سخر له كل ما حوله ، وعلمه كيف يستفيد به ، ويستخلف فيه ويعمره ، ويقيم الحق والعدل فيه ، ويقوده في قافلة العبادة والتسبيح للذى خلق سبحانه .

فالإنسان لا يحتاج لقهر الطبيعة والخلق ، وكيف يحتاج لذلك والكل مسخر له بتسخير الله تعالى ، وهو الذى مكّنه من ذلك - كله - ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية : ١٣].

﴿ وَلَقَدْ مَكَانَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [الأعراف : ١٠] ، فالإنسان مطالب باستثمار ذلك كله والاستفادة به ،

وإن هو لم يفعل فإنه يكون قد أخلَّ بوظيفته في الكون، فالعمران من العبادة وأى جزء من أجزاء الطبيعة يُهمَل، فذلك يعنى أنه مَيّت أو مقتول. ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٣٣]. ولذلك وضع الفقهاء باباً في الفقه أطلقوا عليه «إحياء الموات» أى الأراضى المهملة التى لا تزرع ولا يبنى عليها، ولا تستثمر.

وإن القرآن المجيد قد أقام هذه العلاقات الودية بين الإنسان وعناصر الكون كلّها - ولم يقصر ذلك على البيئة المحيطة به - وحدها - أو البيئة المباشرة، بل تعدى ذلك إلى الشمس والقمر والنجوم ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٦]، ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

[الأنعام: ٩٧].

والقرآن ينبّه هذا الإنسان المستخلفَ المسئول عن العمران، والتعبُد لله - تعالى - به إلى أنّ عليه أن يستعمل سائر إمكاناته الذاتية، والطاقات التى زوّده الله - تعالى - بها لبناء علاقاته بالكون بالشكل المناسب: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]. فالإنسان فى حاجة ماسّة وضرورية إلى هذه الأدوات والقوى. ولكى يشحذ هذه القوى، ويضاعف طاقاتها، هو فى حاجة إلى النظر فى الأرض والكون فيكون النفع بينهما متبادلاً فالنظر والمشاهدة والتدبير والتفكير والتعقل تُمكن

الإنسان من حسن استثمار الكون، وتنمى طاقاته . ونظرة في الكون يعود على هذه الوسائل والأدوات بطاقات مضاعفة . وتعطيها عن ذلك يصيبها بالكسل والفتور، أو يؤدي بها إلى الانحراف .

✽ مدخل العناية

هذا المدخل من مداخل قراءة الكون لا يبعد كثيراً عن «مدخل الخلق»، وإذا كان مدخل الخلق يقودنا إلى النظر في الخلق كيف «بدأ الله الخلق»، وإدراك الغاية منه وسيورته وما سينتهي إليه : فإن مدخل «العناية» يؤدي بنا إلى النظر في نظام الكون الدقيق، واكتشاف بدائع الصنع الإلهي فيه، والقوانين والسنن التي لا تبديل لها، ويوضح في الوقت نفسه الرعاية الإلهية للإنسان بهذه العناية . وهذا النوع من النظر يربى في الإنسان العقل، ويدربه على النظر العقلي في كل ما حوله، ويعلمه كيف يدرك المقاصد والكليات، والحكم والغايات من مداركها ويوسائلها، فيؤمن بربه، ويثق في نفسه . ويدرك أن الكون ليس مركباً من عناصر مشتتة، أو أجزاء منفصلة، بل يراها في ترابطها الدقيق، وانتظامها المتناسك . فذلك هو الذي يعود على الإنسان «بالرؤية الكلية» للكون والإنسان والحياة . ولقد أجهد الفلاسفة ومؤسسو المدارس الفلسفية أنفسهم عبر التاريخ، وما يزال الكثيرون منهم يسعون إلى معرفة المنهج، أو الكيفية التي يمكن بمقتضاها إرجاع سائر عناصر الكون إلى أصل واحد . والوصول إلى منهج أو نظام معرفي أو نموذج معرفي يمكن من تفسير الظواهر الكونية والطبيعية به بشكل عام شامل . إذ لا شك في أن كثيراً من الظواهر

الطبيعية ما يزال العلماء الماديون - بخاصة - يتخبّطون في تفسيرها، ويقلّبون أفئدتهم وأبصارهم فيها، فلا تعود عليهم بالكثير. ولعل السبب الأول لذلك يكمن في عدم التفات هؤلاء العلماء الماديين إلى ما وراء تلك الظواهر من نظام دقيق، وعناية إلهية فائقة، فتنحصر أنظارهم في الظواهر الحسية التي تجعلهم مقيدين «بالجدل بين عناصر الطبيعة المادية». أما لطف التدبير، ووحدة نظامه، فإنه لا يُدركُ إذا لم يؤمن العالم الباحث بوجود المدبر الواحد، وعنايته وحكمته، ومطلق قدرته، فذلك هو الذي يعصم الباحث من التيه، والوقوع في الخطأ.

مثل من القرآن

ويضرب الله - تبارك وتعالى - للبشرية مثلاً بأبى الأنبياء إبراهيم - عليه السلام - حيث نظر في مجموعة من الظواهر والموجودات الكونية باحثاً متأملاً ليحدد موقع كل من تلك الظواهر منه من ناحية، ويحدّد لنفسه موقعاً منها يقول الله - تعالى - : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجْهَتُ وَجْهِي لِلدِّينِ الَّذِي فِطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ

المُشْرِكِينَ ﴿ [الأنعام: ٧٦، ٧٩]. فسيدينا إبراهيم كانت لديه «إشكالية أو أزمة» برزت وهو يشاهد قومه يعبدون أصناماً لهم يصنعها أبوه، ويبيعها عليهم، فأراد لتلك الأزمة المؤرقة حلاً. توجه بالسؤال إلى أبيه «أزر» صانع الأصنام فقال له ولقومه: ﴿وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُ لَهَا عَافِيَةً (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿ [الشعراء: ٦٩ - ٧٤]. فلم يكن لديهم جواب شافٍ أو مقنع غير الحججة المفلوجة المكررة التي لا تقنع أحداً - تقليد الآباء - ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿ [الشعراء: ٧٤] وهنا يتجه إبراهيم - بتوفيق من الله إلى النظر في ملكوت السماوات والأرض ليقوده إلى الدواء الشافي من تلك الأزمة - الإشكالية .

لقد جزأ إبراهيم سؤال الأزمة لديه إلى أجزاء كثيرة أو أسئلة فرعية متعددة. ففي الكواكب نظر في ظاهرتي الأفول - الغياب والنقص - بعد البروز، والإشعاع بالنور، وأدرك أن الأفول والنقص والغياب لا يمكن أن يتصف الإله بشيء منها، إذ كيف يدبر مخلوقاته وهو بهذه الصفات؟ ومن ذا الذي يقوم بالعبادة بها إذا غاب؟ فكانت تلك أسئلته في ملكوت السماوات حتى إذا التفت إلى ملكوت الأرض ساءل قومه وأباه بعد توجيه سؤاله الأساسي والمحوري: ﴿وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُ لَهَا عَافِيَةً (٧١) قَالَ هَلْ

يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا
كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ
(٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ
يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١)
وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢) رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي
بِالصَّالِحِينَ (٨٣) وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤) وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ
النَّعِيمِ (٨٥) وَاعْفُرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (٨٦) وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُعْتَذِرُونَ (٨٧) يَوْمَ
لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿

[الشعراء : ٦٩ - ٨٩].

هنا وبعد أن أجهد نفسه في النظر العقلي في ملكوت السماوات والأرض ﴿وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين﴾ [الأنعام : ٧٥] تبرأ من آلهة أبيه وقومه - كلها - وجهه وجهه للذي فطر السماوات والأرض ماثلاً عن كل ما كان متوافراً من الأديان إلى «الإسلام» فأسلم وجهه لله رب العالمين، فبلغ بذلك توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية. ومدخل العناية إن عرفه الباحثون حق المعرفة، وتبينوا معالم النظام البديع المعجز الذي يسيّر الله - تعالى - الكون بمقتضاه، فإن ذلك سوف يوجد فيهم أقوى الدوافع للبحث الجاد المتواصل للكشف عن الكون، والبحث في الطبيعة، وبلوغ العلاقات والقوانين التي يقوم عليها النظام الكوني.

والباحث المؤمن حين يعجز عن اكتشاف حلقة من حلقات ذلك النظام في ظاهرة من الظواهر فإنه لن يتهم المنهج العلمى الذى استخدمه، ولن ينفى وجود النظام لمجرد أنه لم يضع يده عليه فى تلك الظاهرة، فهو يدرك أن «عدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود»، ولذلك فإن الباحث المؤمن سوف يعاود البحث مرة أخرى، وثانية وثالثة، وينسب القصور إلى نفسه، أو طريقته فى استعمال المنهج. ولن يلجأ إلى القول بالاحتمالية، أو المصادفة، أو نفى النظام. كما يحدث لبعض العلماء اليوم.

• مدخل النظر فى الواقع الموضوعى الخارجى

إن للأشياء وجوداً ذهنياً ووجوداً واقعياً، فالوجود ذهنىُّ عبارة عن تلك الصور الذهنية التى ترسمها المخيلة الإنسانية للأشياء، فإذا خرجنا بها إلى الواقع فإما أن نجده مطابقاً لما ارتسم فى أذهاننا. فيصدق الواقع الخارجىُّ «الصورة الذهنية»، فيتضح لنا أنذاك - أن لتلك الصورة الذهنية تحقُّقاً عينياً. ولو أن الواقع الخارجىُّ لم يصادق على تلك الصورة الذهنية، فذلك يعنى أن تلك الصورة غير دقيقة، أو هى مجرد صورة متخيلة لا سند لها من الواقع. ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

[العنكبوت: ٢٠].

﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

فقضية الجمع بين القراءتين مسألة منهجية فى المعرفة وتقود إلى نتيجة حضارية ، فالذى يجمع بين القراءتين لا يستغنى عن الله لأنه يدرك دوماً افتقاره لله - سبحانه وتعالى فلا يستبد ولا يبتغى علواً فى الأرض ولا فساداً ولا يطفى ، ولا يلحد ولا يدمر الحياة والأحياء ، ولا يعيث فى الأرض فساداً .

كيفية الجمع بين القراءتين

إن المدخل الأساسى للجمع بين القراءتين يبدأ باكتشاف العلاقة المنهجية بين الناظم المنهجى لآيات القرآن الذى أعطى القرآن «وحدته البنائية» وإعجاز «نظمه» ، وبين السنن والقوانين المشوثة فى الوجود ، والمهيمنة على حركته للكشف عن الناظم المنهجى الذى يربط بينهما . فالقرآن وحى إلهى تتعقل به وتفهم به هذا الوجود انطلاقاً من أن القرآن مطلق ، ومحيط وشامل . ويقدر ما تتسع معرفتنا للثنتين معاً بقدر ما تتكون لدينا القدرة على «الجمع بين القراءتين» ، واكتشاف التداخل المنهجى بين منهجى الوحى والكون ، فمنهجية القرآن موازية لمنهجية الوجود ، ولا ينبغى الاقتصار على قول ذلك نظرياً أو إدراجه فى دائرة «فضائل القرآن» ، ولكن ينبغى اكتشاف ذلك تطبيقياً . فالقول النظرى قد لا يتجاوز حالة تبشير بفرضية قد تكون غير صحيحة أو مما يمكن الطعن فيه ، ولهذا يكون التحدى الأول والأهم للمسلم المعاصر هو الكشف عن التداخل المنهجى بالجمع بين القراءتين : أى بين الوحى الإلهى والعلوم

الطبيعيَّة والإنسانيَّة القائمة على السنن الإلهية فى الكون والحياة والإنسان . أما الحديث عن عظمة القرآن وفضائله ، فإن القرآن عظيم حقاً ومعجز فعلاً وذو فضائل تجل عن الحصر ، وقد كتب الناس عن عظمته وإعجازه وفضائله آلاف الصفحات ، بل ملايينها ، لكن تلك الكتابات لم تستطع أن تكشف للناس عن منهجيَّة المستوعبة للكون وحركته ، والمتجاوزة لها ، والقادرة على إقامته على قواعد الهدى ودين الحق . كما لم تؤد إلى الكشف عن التداخل المنهجي بين قراءة القرآن فى وحدته البنائيَّة ، وقراءة الكون فى وحدته القائمة على سننه وقوانينه . فقد بقيت آيات كريمة كثيرة ومقولات دينيَّة كثيرة عرضة لتأويلات شتى . وفى كثير من تلك التأويلات تبدو الإسقاطات الإسرائيليَّة ونحوها واضحة .

كذلك^(٢٢) بقيت فى المعارف الإنسانية والاجتماعية الحديثة ، بل وفى

(٢٢) الإسرائيليَّات قد تداخلت مع جوانب كثيرة ، من أبرزها التفسير ، وقد جرت محاولات كثيرة ولا تزال تجرى لفصل تلك الإسرائيليَّات عن تراثنا التفسيري ، كتب فى ذلك الشيخ محمد حسين الذهبي وأبو شهبه ورمزي نغاعة وآخرون كما أعدت دراسات جامعيَّة فى «إسرائيليَّات تفسير الطبرى» وغيره . ولم تفلح تلك المحاولات كثيراً فى وضع خطوط فاصلة بين الإسرائيليَّات وغيرها فى التراث ، وذلك لأن التراث الإسرائيلي كان يشكل جزءاً أساسياً من الثقافة الشفوية فى جزيرة العرب عند البعث . ولأن كثيراً من علماء بنى إسرائيل قد أسلموا ودخلت معهم ثقافتهم التى كانوا يحملونها ، وانتقلت إلى المعارف الإسلاميَّة ، ودونت فى عصر التدوين على أنها جزء من تلك المعارف . وقد أورد ابن خلدون فى مقدمته تعليلاً وتحليلاً جيداً لأسباب ذلك التداخل وطبيعته من المفيد إيراد . يقول ابن خلدون : «إن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم وإنما غلبت عليهم البداءة والأمية ، وإذا تشوفوا إلى معرفة شىء من أسباب المكونات وبدء الخليقة وأسرار الوجود ، فلما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم =

العلوم الطبيعية المعاصرة كذلك أبعاد غائبة، وأسئلة كثيرة حيرى لا تجد من مدارس تلك العلوم المختلفة إجابات شافية، لأنها لم تكتشف ذلك التداخل المنهجي بين القراءتين إلا فى حدود جزئية تمثلت فى محاولات انتقائية يغلب على بعضها التلفيق الذى يجعلها تبدو مفتعلة إلى حد كبير كتلك المحاولات التى تبدو فيما عرف أخيراً بـ«الإعجاز العلمى».

= ويستفيدونه منهم، وهم أهل التوراة من اليهود ومن تبع دينهم من النصارى. وأهل التوراة الذين بين العرب يومئذ بادية مثلهم ولا يعرفون من ذلك إلا ما تعرفه العامة من أهل الكتاب، ومعظمهم من حمير الذين أخذوا بدين اليهودية فلما أسلموا بقوا على ما كان عندهم! مما لا تعلق له بالأحكام الشرعية التى يحتاطون لها مثل بدء الخليفة وما يرجع إلى الحدثن والملاحم وأمثال ذلك. وهؤلاء مثل كعب الأحبار وهب بن منبه وعبد الله بن سلام وأمثالهم، فامتلات التفاسير من المنقولات عنهم. وتساهل المفسرون فى مثل ذلك، وأصلها كما قلنا عن أهل التوراة الذين كانوا يسكنون البادية ولا تحقّق عندهم بمعرفة ما يتقلونه من ذلك إلا أنه بعد صيتهم، وعظمت أقدارهم لما كانوا عليه من المقامات فى الدين والملة فتلقيت بالقبول من يومئذ».

كما لخص محمد عزة دروزة - رحمه الله - روايات كثيرة عن مختلف المصادر العربية القديمة التى عززتها روايات الآخرين ومصادرهم، أن جماعات من بنى إسرائيل قد جاءوا إلى مختلف المناطق الحجازية من أمد بعيد واستقر أكثرهم فى يثرب فى ناحيتها على طريق الشام، وكان بعض أفرادهم يترددون على مكة أو يقيمون فيها. وقد تعلموا اللغة العربية واشتركوا فى حياة العرب وتقاليدهم وصار لهم فيهم أنصار وحلفاء ومحبون ومراكز قوى، وأنهم نشروا عن أنفسهم علماً واسعاً فى الأديان والشرائع وأخبار الأمم وسنن الكون والدين السماوى الذى يدينون به والكتاب المنسوب إلى الله ورسله الذين يتداولونه، وكانوا يزهون بذلك على العرب ويفخرون ويستفتحون عليهم بل ويدلسون فى كل ذلك عليهم، ويظهرون غروراً وخيلاً وتبجحاً بما عندهم من العلم وما يصدر عنهم من معارف ولو كان فيها زيف وتدليس، ويزعمون أنهم أولياء الله وأحباؤه وأصحاب الحظوة لديه، وأن ذلك قد أثر على العرب تأثيراً غير يسير فكان =

فتأكيدنا^(٢٣) الدائم على ضرورة وجوب «الجمع بين القراءتين»،
وحسبان ذلك شرطاً مسبقاً للخروج من الأزمة الفكرية والمعرفية في

= لليهود بسببه مكانة ممتازة صاروا بها مرشدين وقضاة، وأنه كان لهم كيان طائفي ديني ولهم معابدهم ومدارسهم وأخبارهم وربانيوهم. وكان لهؤلاء تأثير كبير في أبناء الطائفة كما كانوا قضاتهم، وكان منهم من يتخذ منصبه ونفوذه وسيلة إلى ابتزاز المال بالباطل. وكانوا يتعاطون السحر والشعوذة أيضاً. وكانوا جاليات كثيرة العدد، منهم بل أكثرهم استقروا في أحياء خاصة لهم في يثرب المدينة وحصونها كذلك بالقلاع والحصون والأسوار، ومنهم من سكن في مزارع وقرى خارج المدينة منها القريب ومنها البعيد وحصنوها بالقلاع والحصون والأسوار، وكانوا يقتنون مختلف أنواع السلاح وبكميات كبيرة من سيوف ورماح وقسي ونبال وحراب ودروع. ولم يكونوا متحدين في كيان سياسي وعسكري وديني، بل كانوا فرقاً وأحزاباً، وكانوا على خلاف ونزاع وعداء. وكان في المدينة قبيلتان عربيتان هما الأوس والخزرج وكان بينهما نزاع وعداء وحراب. فكان فريق من اليهود متحالفاً مع إحداهما وفريق آخر مع الأخرى، وكان كل فريق يقاتل مع حليفه الفريق الآخر مع حليفه من اليهود. ومع ذلك فقد كان طابع الذلة والمسكنة والجن والغربة والفرع يطبعهم جميعاً فكانت محالفتهم مع العرب بالإضافة إلى حصونهم وقلاعهم وسلاحهم وسيلتهم إلى الاستمسك والبقاء، وكانوا لأجل ذلك يحرصون على أن يبقى النزاع والعداء قائماً بين القبيلتين العربيتين، وكانت لهم حقول ومزارع وبساتين وأموال وأملاك. وكانوا يشتغلون بالتجارة والصناعة والربا، فكان كثير منهم نتيجة لذلك أغنياء وأصحاب ثروات، وكان ذلك يساعدهم على النفوذ والتأثير بالعرب أيضاً.

راجع مقدمة ابن خلدون: (ج ٣ ص ٩٣٥، ٩٣٦) // تأليف عبد الرحمن بن محمد بن خلدون؛ تحقيق د. علي عبد الواحد وافي. - نهضة مصر، ٢٠٠٤. وراجع «القرآن والمبشرون»، وكتابنا «إشكالية الردة» (٣٤-٣٦) ط. مكتبة الشروق الدولية بالقاهرة.

(٢٣) الإعجاز العلمي كان قد بدأه - فيما نعلم - الإمام فخر الدين الرازي بتفسيره «مفاتيح الغيب» أو التفسير الكبير، ولكنه شاع - أخيراً - وانتشر بين المتأخرين وقامت على أساس من خدمته مؤسسات كثيرة، وكتب فيه كاتبون. ومع إقرارنا بفوائده في تعزيز

مستوياتها العالمية والمحلية يحمل توكيداً على وجوب الالتفات إلى ذلك الارتباط المنهجي بين القرآن والكون والإنسان: فالقرآن ضم قواعد «الوحي الإلهي» الذي جاء به المرسلون كافة. والكون مجال كلمات الله ومظهر إرادته ومشيتته. والإنسان مستخلف للاهتداء بالوحي في إعمار الكون. وبذلك تكتمل حلقات التصور الإنساني، وتظهر سائر مقوماته، وتبرز علاقة الغيب بالطبيعة والإنسان. ويتخلص الإنسان من مأساة الفصام بين اللاهوت والناسوت والملكوت أو بين الدنيا والآخرة، أو بين التزليل الإلهي والفلسفات الوضعية البشرية، وما جره ويجره ذلك الفصام النكد من مشكلات.

= إيمان بعض من استولت عليهم ثقافة العصر، وصار إسقاط ثقافة العصر على القرآن، وتعزيز موقعه بها مريحاً لهم، ومخرجاً لهم من الحيرة والتردد بين القرآن وثقافة العصر فإتانا نربأ بالقرآن أن يدور حول ثقافة العصر القلقة المترددة، وعلومها المتذبذبة بين اليقينية والنسيية والاحتمالية إن قصارى ما يقدمه ما يسمى «بالإعجاز العلمي» أن يجعل القرآن مساوياً لثقافة العصر يحاول الحصول على تأييدها ومباركتها، وذلك سوف يخدم ثقافة العصر، ويروج لها بين المسلمين أكثر مما يخدم القرآن المجيد نفسه، وذلك يصادم القول «باطلاقتة القرآن» ويسقط عليه نسيية واحتمالية ثقافة العصر. وإذا كان العلم قد تحول في قرن واحد أو أكثر قليلاً من اليقينية إلى الاحتمالية والنسيية، ومن السبيبة الصلدة الجامدة إلى السبيبة السائلة فما الذي سوف يحدث للقرآن وصفاته إن نحن أسقطنا ثقافة العصر عليه؟!

أما «الجمع بين القراءتين» و«منهجية القرآن المعرفية» فإنها على النقيض من ذلك تجعل القرآن هو المصدق على ثقافة العصر وعلومه ومناهجه، وهو الذي يقرر صلاحية الصالح منها، أو عدم صلاحيته، وهو المهيمن عليها، والحاكم فيها. والله أعلم.

إن هذه المهمة لا يستطيع النهوض بها إلا من أوتي القرآن وحظاً من العلوم والمعارف كافياً لاكتشاف ذلك التداخل المنهجي بين القرآن والكون والإنسان، ولذلك أرسيت قواعد «المنهج القرآني» على الدعائم التالية:

١- إعادة بناء الرؤية الإسلامية المعرفية القائمة على أركان العقيدة المحددة المحصورة كما جاء بها القرآن ومقومات وخصائص التصور الإسلامي السليم المنبثق عنها، ليتضح ما يمكن حسبانه «النظام المعرفي الإسلامي» القادر على الإجابة عن «المسئلة الكلية النهائية» ومعالجة ما أسماه الفلاسفة المتقدمون «بالعقدة الكبرى» دون تجاوز شيء منها، وبناء قدرة ذاتية على النقد المعرفي الذي يمكن من الاستيعاب والتجاوز بشكل منهجي منضبط، في الوقت نفسه يعطى القدرة على التوليد المعرفي والمنهجي وبه يتحقق الإبداع. والتفسير المعرفي الذي لا يقوم على الإقناع والخطابة بل على المعرفة المنهجية التامة.

٢- إعادة فحص وتشكيل وبناء قواعد المناهج الإسلامية في مجالاتها المختلفة، وذلك بعرضها على «المنهجية المعرفية القرآنية» وتعديلها بنورها وعلى هدى منها. فإن أضراراً بالغة قد أصابت هذه المنهجية نتيجة القراءات المفردة والتجزئية التي جعلت القرآن عضين، وقرأت الوجود والإنسان في معزل عنه قديماً وحديثاً. وليمكن العقل المسلم من تجاوز تلك الأمراض الفكرية التي شلت فاعليته كالأضطراب في فهم علاقة الغيب بالشهادة، وعلاقة النقل والعقل، وعلاقة الأسباب بالمسببات وغير ذلك من أمور.

٣. بناء منهج للتعامل مع القرآن المجيد ومعرفة مداخل قراءته من خلال هذه الرؤية المنهجية التحليلية، بحسبان القرآن مصدراً منشئاً للمنهج والعقيدة والشرعة والمعرفة ومحددًا لمقومات الشهود الحضاريّ والعمرائي، وقد يقتضى ذلك إعادة بناء وتركيب نظريّات علوم القرآن المطلوبة لهذا الغرض، وتجاوز بعض الموروث فى هذا المجال من تلك المعارف التى أدت دورها فى خدمة النصّ القرآنيّ، واستفاد بها العلماء فى مراحل تأسيسها التاريخيّة، وبدأت الحاجة تبرز إلى البناء عليها تلبية لحاجات الأمة فى حاضرها ومستقبلها. فالإنسان العربى قد فهم القرآن ضمن خصائص تكوينه الأولى عقلياً ونفسياً ولغويّاً، وكانت تلك الخصائص التكوينيّة بسيطة فى بداياتها ومحدودة اجتماعياً وفكريّاً يغلب أن تتم فى إطار لغويّ ومعطيات نقلية شفويّة تجعل الاهتمام ينصب على صحة النقل، وتوثيق الرواية بالطرق المتعارف عليها لديه التى كانت تمثّل أرقى المعارف فى طرق التوثيق فى عصره. وحين بدأ التدوين الرسمى للعلوم والمعارف النقلية الإسلاميّة التى دارت حول النصّ القرآنيّ والحديث النبويّ فى القرن الهجرى الثانى، برزت تلك الخصائص فيما كان قد دوّن من علوم ومعارف. كما ظهرت إلى جانبها خصائص العقليّة البلاغيّة واللغوية العربيّة فى تلك المرحلة وما تقتضيه من اتجاه نحو التجزئة باتجاه دراسة الجمل والتراكيب مع ملاحظة المفردات ابتداءً. فلا غرابة أن يعرف «التفسير» وهو أهم علوم الفهم: بأنه «معرفة أحوال كلمات القرآن وألفاظه»، فتلك كانت هى المنهجية السائدة، ولذلك عدّ

الفهم الذى تولد عنها مقبولاً وكافياً فى تلك المرحلة والمراحل التى تلتها .
أما فى المرحلة العالمية الإنسانية الراهنة، حيث تسيطر «عقلية الإدراك الإنسانى المنهجى» للأمر، والبحث عن العلاقات النازمة لها بطرق تحليلية ونقدية توظف الأطر والقواعد العلمية المختلفة، وترتبطها بموضوعات حضارية متشعبة، وعلاقات متنوّعة، فلا بد من إعادة النظر فى كيفية إغناء وتجديد علوم وسائل فهم النص وخدمته وقراءته قراءة الجمع مع الكون، وإدراك أبعاد التداخل المنهجى بين القرآن والكون، وتنقية كثير من جوانب التفسير والتأويل والتراث المتعلق بتلك المراحل، لإزالة آثار الربط الوثيق بالنسبى من خلال الإسقاطات الإسرائيلية وغيرها، والربط التام بأسباب النزول والمناسبات . ولكى تظهر وجوه التحدى بالقرآن العظيم، وجوانب إعجازه المؤثرة فى هذا العصر ينبغى أن يضاف إليها - الآن - البعد الاجتماعى والمنهجى ليتحقق التحدى الدائم به، ويبرز إعجازه الذى يُعدُّ الدليل المنهجى الأول على إطلاقه، وعدم نسبيته وبطبيعة الحال فإننا نتجاوز «الإعجاز العلمى»، لأنه لا يعدُّ أن يكون اسقاطاً لثقافة العصر على القرآن، وذلك ليس من مقصودنا .

٤- بناء منهج للتعامل مع السنة النبوية المطهرة - أيضاً - من خلال تلك

الرؤية المنهجية، وبحسبان السنة النبوية المطهرة مصدراً مبيّناً للقرآن المجيد وتطبيقاً لما جاء القرآن به، وتنزيلاً له فى الواقع المتحرك، يحمل تفاصيل وتطبيقات المنهج والشرعة، وقواعد المعرفة ودعائم ومقومات الشهود

الحضارى والعمرائى، فقد كانت مرحلة النبوة وعصر الصحابة مرحلة تعتمد على الاتصال المباشر برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ومتابعته والتأسى به فيما يقول أو يفعل: «خذوا عنى مناسككم»، «صلوا كما رأيتمونى أصلى»^(٢٤)، والاتباع والتأسى يعتمدان على ملاحظة التحرك العملى والتطبيقى لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وسيرته فى الواقع. فالرسول صلى الله عليه وآله وسلم - كان يجسّد بسلوكه القرآن فى الواقع، ليحقق الربط بين النص والحياة، ويبيّن «فقه التنزيل». فالتطبيق النبوى والبيان المحمدى كانا يضيّقان الشقة تماماً بين مكونات ومكونات المنهج الإلهى القرآنى، وبين الواقع بمستوى ثقافة أهله وعقلياتهم وقدراتهم الفكرية والمعرفية، وتصوراتهم السائدة آنذاك، وبشروط ذلك الواقع الاجتماعى والفكرية فى إطار ذلك السقف المعرفى والعلمى واللغوى السائد فيه، ولذلك كان الرواة من الصحابة - رضوان الله عليهم - حريصين على ألا تفوتهم أى جزئية تتعلق بحياة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - لأن ذلك هو البديل الوحيد عن الوعى بالمنهج الناظم للقضايا المختلفة فى عصرهم، واستخلاص منهج التطبيق

(٢٤) وحديث: «... لتأخذوا عنى مناسككم فإنى لا أدرى لعلى لا أحج بعد حجتى هذه». صحيح مسلم/ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. - دار إحياء التراث، رقم الحديث (١٢٩٧)، (ج ٢، ص ٩٤٣) تجده فيه بتمامه ويلفظ آخره. وحديث: «... وصلوا كما رأيتمونى أصلى...». صحيح البخارى/ تحقيق مصطفى ديب - دار ابن كثير واليمامة. - ط ٣، ١٤٠٧هـ، رقم الحديث فيه (٢٢٦)، ص ٦٠٥، فراجع بتمامه فيه. وراجع المحصول للإمام الرازى بتحقيقنا (٣/ ٢٤٣ و ٢٥٠).

منها لمن يأتي بعدهم . ولذلك اشتملت المرويات على ذلك الكم الهائل من أقوال وأفعال وتقريرات رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وتلقينا كل تلك التفاصيل التي تجعل سائر الأجيال التالية لجيل التلقى قادرة على أن تتأسى به ، وتستخلص من ذلك منهجاً لاتباع القرآن وهي تتابع حركته اليومية - عليه الصلاة والسلام - في غدوه ورواحه وسلمه وحره وتعليمه وقضائه وقيادته وفتواه ، وممارساته الإنسانية بطريقة تكشف عن أسلوبه أو سته - عليه الصلاة والسلام - أو منهجه في التعامل مع الواقع ، وتكشف - إضافة إلى ذلك - عن خصائص الواقع الذي كان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يتعامل معه ، ويمارس حياته فيه ، ويتحرك في مجالاته . وهذا الواقع - لاشك - مغاير للواقع الذي نحياه في تركيبته وقضاياه ومشكلاته ، وعلاقات أهله ، مغايرة نوعية . إضافة إلى المغايرة الكمية التي نسلّمها جميعاً .

لقد كان عليه الصلاة والسلام في سيرته وستته يمثل تجسيداً للربط بين المنهج القرآني والواقع المعيش ، ولذلك فإنّ من الصعب فهم الكثير من القضايا في معزل عن فهم ذلك الواقع الذي كان عليه الصلاة والسلام يتحرك فيه ، ويجاهد ويجتهد لتغييره وإصلاحه ، ويكون ذلك الفهم بدراسة واقع عصر النبوة وما فيه إضافة إلى أسباب ورود الأحاديث والأحداث التي ترتبط بها .

وهذه الأحاديث قد يحولها المختلفون إلى أقوال جزئية قد تدل على الشيء ونقيضه ، وكأنها أقوال أئمة المذاهب المختلفة ، إذا لم يلاحظ

الرابط المنهجيّ بينها. لقد ارتبط المسلمون في مرحلة نزول القرآن بمفهوم التأسّي والاهتداء والاتباع والاقْتداء ولم يؤمروا بالتقليد أبداً. وهذه المفاهيم الأربعة تشترك في أن تحقيقها يقتضى معرفة منهج التأسّي به - صلى الله عليه وآله وسلم -، ولذلك أمر رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بالاهتداء بهندي من سبقه من الأنبياء والرسل: ﴿أُوَلِّكُمُ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠]، أى بمنهجهم في الطاعة والدعوة والتبليغ والبيان والتطبيق، ولم يؤمر بتقليدهم. وقد مكن ذلك من اتخاذ الصحابة من رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - قدوة عملية جسدت لهم «المنهج» طبقاً لشروطهم الواقعيّة الحياتيّة. ويمكن ملاحظة ذلك في مواقف الشيخين - رضى الله عنهما - من السنن، وأم المؤمنين عائشة وبقية كبار قراء وفقهاء الصحابة. ومن الاتباع والاقْتداء والاهتداء نشأت اتجاهات التعامل مع «المأثور والمنقول»، فاهتدى بذلك من اهتدى، وزاغ عنه من زاغ، وأصاب الفهم الدقيق لذلك المأثور من وفقه الله، وجانبه من خذل. فبرزت لدى بعض من جاء بعدهم الحاجة للتخفيف من الآثار التي نجمت عن التعامل الجزئى مع القرآن المجيد، ورواية الأحاديث والسنن مجزأة وبعيدة عن سياقها ومنفصلة عن القرآن. فلجأ - بعد ذلك - من لجأ إلى التأويل الباطنى والتفسير الرمضى والإشارى بوصفه مخرجاً من التقيد بحرفيّة المأثور أو بجزئياته. واستسهل البعض رد الأحاديث، ولكن بعض التأويلات ما زادت ذلك الأمر إلا اضطراباً. واثارت بعد

ذلك مشكلات «حجّية السنة» جملة أو حجّية بعض أنواعها وغير ذلك من قضايا لا تزال نعانى منها، ومن الآثار الفكرية التي تخلفت عنها. ولو أنه تم الكشف عن المنهج القرآنى للتعامل مع ما قاله أو فعله أو أقره الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - لأمكن أن ينضبط التعامل مع ذلك المنقول - كله - ولردت الجزئيات إلى الكليات، ولفهمت في إطار المنهج سائر القضايا الجزئية، لأن المنهج كفيل بتبيين المقاصد، واتضح الغايات.

إن العقلية المعاصرة عقلية تبحث - باستمرار - عن الناظم الموضوعى للأمر، وتحاول النفاذ إلى المنهجية الكاملة في الأبعاد المختلفة، هذه المنهجية تعتمد على التحليل المنهجي والتفكيك والنقد والتفسير وتجعلها الوسائل الأساسية والإطار الموضوعى للحركة الفكرية في تعاملها مع النصوص والقضايا الكونية والمحلية. وبهذه المنهجية يمكن النفاذ إلى مقاصد القرآن المجيد ومحاوره وقيمه العليا وكلياته، وتفهم السنن النبوية فهماً منهجياً يحمى من الوقوع في إطار ماضوية أو تاريخانية سكونية أو تأويلات باطنية، أو محاولات تجديدية تعمل على إحداث تعديلات أو تأويلات لتطبيقات الماضي لتعيد إنتاجها في الحاضر، فكانها تعبير عن الماضي في ثوب جديد.

٥. إعادة دراسة وفهم تراثنا الإسلامى وقراءته قراءة نقدية تحليلية معرفية، ومقايسته إلى منهج التصديق والهيمنة القرآنيين لنخرج من

الدوائر الثلاث السائدة التي تحكم أساليب تعاملنا مع تراثنا - فى الوقت الحاضر- : دائرة الرفض المطلق له بدائرة القبول المطلق، ودائرة الانتقاء اللأمهجى . فهذه الدوائر الثلاث لا تمكنا من التواصل مع ما يجب التواصل معه من هذا التراث، كما لا تساعدنا فى تحقيق القطيعة مع ما يجب إحداث القطيعة معه من ذلك .

٦- بناء منهج للتعامل مع التراث الإنسانى المعاصر - أيضاً - أو ما يعرف بـ «التراث الغربى» أو «الفكر الغربى» يخرج تعامل العقل المسلم معه من أساليب التعامل الحالية التى تخلفت عن أطر ومحاولات المقاربات، ثم المقارنات، ثم المقابلات والمعارضات لتتهى بالرفض المطلق بروح مستعلية متجاهلة، أو القبول المطلق بروح مستلبة تماماً أو الانتقاء للعشوائى المتحيز له أو عليه .

فهذه الخطوات أو المحاور أو المهام الست هى التى يمكن أن نطلق عليها خطوات أولية باتجاه بناء «المنهج التوحيدى للمعرفة» . وذلك لأننا نجد أنفسنا لأول مرة أمام وضعيَّة عالميَّة تعمل على توظيف المعارف والعلوم واكتشافات العلوم ومنجزاتها توظيفاً يفصم العلاقة بين الخالق والكون والإنسان، وذلك بطرح تصورات حول الوجود يبدو بعضها نقيضاً للتصور الدينى عامة ولرؤيتنا المعرفية الإسلامية خاصة، وسواء أكان ذلك حقيقة واقعة أم لم يكن فإن تجاوزه لن يكون بأن نتقى من مقولاتنا التراثية ما يجعلنا نقاربها مع ما يتوافق مع تلك التصورات لنقول : إنها لدينا من قبل أو نرفضها وندمغها بالكفر، فمنطلقنا ومنذ

الأساس تجاه العلوم الكونية ليس منطلقاً لاهوتياً أو كهوتياً، وليس مطلوباً منا تقليد غيرنا، فإن تجربتهم فى مواجهة العلم ومنجزاته تختلف عن تجربتنا، فلو كان القرآن لاهوتاً لما جازت فيه إلا قراءة البعد الواحد، أى القراءة الأولى فقط، وقد أمرنا بقراءتين، فنحن لم نصارع العلم، ولم نقابله بالفرض وقتل العلماء، لأننا ندرك أن الوحي فى الكون الكتابى هو الوحي الذى فى الكون الطبيعى، ولكل منهما أسلوب ومنهج قراءة يخصه، فإذا ظهرت انحرافات أسندت إلى العلم، فالمطلوب منا هو: تطهير العلم منها، وإذا ظهرت انحرافات فى التفسير والتأويل، فيجب حماية النص منها. وهذا أساس «الجمع بين القراءتين». إذ لم يكن الدين من قبل يواجه سوى فكر عقلى وضعى مجرد ولم يكن مسلحاً بالعلم التطبيقى المعاصر ونتائجه التى أدت إلى قيام مذهبىات تجاوزت الوضعية التقليدية، فالمطلوب منا - كما أمرنا - استرجاع أو استرداد العلم من هذه المذهبىات وتطهيره وإعادة توظيفه، وتنقية علوم ومعارف خدمة النص مما ألحق بها أو أضيف إليها، لتستقيم القراءة وتحقق إمكانات «الجمع بين القراءتين».

المهمة قرآنية وكذلك عالمية

هذه المهمة - المتمثلة فى بيان وإبراز منهجية القرآن المعرفية مهمة عالمية: تهم العالم كله، ويحتاج إليها العالم كله، وإن تصورنا البعض مهمة فى إطار الخصوصية الجغرافية والبشرية الإسلامية، فنحن - فى

عصرنا هذا - جزء متفاعل مع عالم اليوم، لا بغزوه الثقافى، فذاك أمر كان سائداً فى القرنين - الثامن عشر والتاسع عشر، ولكن تفاعلنا مع عالم اليوم يتم بغزو العلم التجريبي التطبيقى الذى يتطلب منا جهداً فى بيان «منهجية القرآن المعرفية» يعادل جهد أسلافنا الكرام فى مواجهة الغزو الفكرى الذى دق أبوابنا مع الثورة الفرنسية، إذ كنا نواجه وقتها حالة عقلية مجردة، وبإمكانات الوضعية العقلية المحدودة، أما الآن فإن المواجهة مع عقل علمى تجريبى فرض نفسه، وأعاد صياغة العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية كلها بمرجعية تجريبية، فإما أن نتحول إلى موقف الدفاع اللاهوتى العاجز - ومنا من يفعل ذلك - وإما أن نتحول إلى العمل على اختراق النسق الحضارى والثقافى المعاصر برؤية قرآنية كونية وجامعة!! فهذه العلوم التجريبية - كافة - ما زالت تتعثر فى انطلاقاتها، مقيدة إلى الجزئى ولم تأخذ بعداً كونياً كلياً يحتملها، والبعد الكونى كامن فى الوحى القرآن: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٥٦) خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٦، ٥٧].

ومع كون المهمة عالمية يتأكد - أيضاً - كونها قرآنية محضة، فأمام التدافع الدينى، وإفلاس الأنساق الحضارية العالمية، وختم النبوة وبروز الأزمات الفكرية والمعرفية عالمياً ومحلياً، يتصدى القرآن وحده لخوض

معركة شاملة بحسابه كتاب وحى مطلق، ليستمر فى عطائه وكرمه بعد أن لم يعد لدى الآخرين ما يقدمونه، فهى معركة اختبار لنا فى مدى فهمنا لمنهجية القرآن وقدرتنا على إصلاح وتسيد المسيرة الحضارية به، وإخراج مختلف مناهج العلوم من أزمتها عبر «الجمع بين القراءتين»، فالعلوم المعاصرة قد بلغت اليوم مراحل متقدمة جداً فى معرفة وإدراك الظواهر، فلم تعد الظواهر كما فهمها جمهرة المتقدمين أو تمثلها العالم القديم - تلك الظواهر الشاخصة والمجسدة أمام العين الناضرة، فالحواس التى كانت هى وسيلة التعقل أفسحت المجال الآن لحواس مجهرية وإلكترونية أعطت مفاهيم جديدة للظاهرة، فإذا فهم الأقدمون الذرة بوصفها حبة رمل أو تراب مرثية - فإن الذرة اليوم ذرة مجهرية قد تحول معناها مما يبصر إلى ما لا يبصر: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الحاقة: ٣٨، ٣٩]. وصارت تفجر وتحول إلى طاقة، وهنا نفهم دقة القرآن المجيد وحكمته فى قوله: ﴿تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [السجدة: ١٦].

وحيث فهم الأقدمون الأطوار التاريخية فهماً تعاقبياً تكرريراً قائماً على «كر الجديدين» الليل والنهار، فإن الأطوار اليوم تتمثل فى صيرورة وتغيرات كيفية لا مجرد تغيرات كمية فقط، وهذا هو الذى يوضح المراد بالسببية العلمية المعاصرة التى تقوم على صيرورة وتحولات كيفية بالدرجة الأولى.

منهجية القرآن والمصير الإنساني

ليست قضية «منهجية القرآن» - إذن - مجرد ضرورة أو حاجة فلسفية مجردة، لأنها وهى تقدم «الجمع بين القراءتين» تقدم دليل إنقاذ الفكر البشرى من أزمة اللاهوت المستلب للإنسان والطبيعة، وهى فى الوقت ذاته تخرج من الإطار الوضعى كل ما يفصم العلم عن خالقه، فلكل من المنهجين آثاره وإسقاطاته على حياة الإنسان ونسقه الحضارى ومبادئه وتشريعاته، فمنهجية القرآن - عند التأمل الجاد لها - تعد أهم مقدمة «لبديل حضارى عالمى» لا يستهدف إصلاح أوضاع المسلمين فقط، بل يستهدف إصلاح العالم كله، وهذه مهمة تتطلب الكثير من البحوث المميّزة الجادة فى القرآن العظيم نفسه بفهم تحليلى جيد ومن منظور علمى وعالمى منهجى، وهذه هى غاية «منهجية القرآن» الأساسية أن تجعل من القرآن كتاب هداية، ودليل استخلاف، وسبيل خلاص، ومنطلق عمران. إنه بدون فهم القرآن فهماً منهجياً فى إطار وحدته وبنائته الكاملة فهماً يتصل وينعكس على فهمنا المنهجى المعاصر للظواهر الكونية، وسنن حركتها فى «وحدتها البنائية» أيضاً، يستحيل تأسيس عمران سليم. فمنهجية العالم المعاصرة من شأنها أن ترد الكثرة إلى الوحدة، وتحلل الظاهرة بحثاً عن العلاقات والسنن الكامنة فيها وفيما وراءها، ولا يكتفى بتفسيرها. والقرآن (المكنون المجيد الكريم) قابل فى وحدته البنائية الكلية لهذا الفهم المنهجى، بحيث ندرس الكتاب الكريم

بمثل المنهجية التي يدرس بها العلماء الكون العظيم، وكما ذكرت بعقلية علمية عالمية قادرة فاعلة تستطيع إدراك التداخل المنهجي بين «منهجية القرآن» و«سنن ومنهجية الكون».

لا شك في أن هناك أزمة لا بد للعالم من تجاوزها والتغلب عليها، وتبدو هذه الأزمة - بوضوح - في أن العقل العلمى العالمى المعاصر يرفض كل الكتب الدينية، وإذ يتسامح مع بعض موضوعاتها، فإنه يصمم على رفض منهجية أى منها، ولا يدرك وحدة بنائية لأى منها، ولا يتفهم إطارها الغائى مؤكداً على أن اختصاص أى كتاب دينى يجب أن يتوقف عند الاقتناعات الإيمانيةً وغيبات ما وراء الطبيعة. وبالتالي فإن «الجمع بين القراءتين» - الغيبية والموضوعية - يبدو فى نظر هؤلاء العلمويين مستحيلًا طالما أن هناك مقولات فى الكتب الدينية تتعلق بالغيب الذى لا يمكن إدخاله المختبر والتجريب عليه، فإنه لا مجال لاتخاذ أى منها مصدرًا من مصادر العلم، وإلا تم تزييف العلم أو هدم نظرياته فكل ما تشير إليه الكتب السماوية من كائنات غير مرئية أو بعض القصص التاريخى الذى لا يخضع لاختبارات العلم الوضعى المعاصر لا يملك أحد - فى نظرهم - إعطائه الصفة العلمية، ولذلك خرجت اليونسكو على العالم بتعريف للمعرفة ينص على أنها: «كل معلوم خضع للحس والتجربة».

إن هذا المنطلق يصدر عن فهم خاطئ لم يلاحظ قضية «الجمع بين القراءتين» فغاية «الجمع بين القراءتين» أن تنتهى إلى «فهم كونى» للوجود

لا يقتصر على القراءة الثانية بمفردها. فلو اكتفينا بالقراءة الثانية فقط لبقينا في حدود الإطار الوضعي للفكر الإنساني ومقولاته حول الوجود، ولمارسنا مفهوماً يعتمد على تفكيك الظاهرة وتجزئتها انطلاقاً من «الجدلية العلمية المعاصرة واحتماليتها ونسبيتها»، وهنا تبرز محاذير القراءة الثانية المنفردة، إذ إنها تنتهي بنا إلى فكر وضعي جزئي لا إلى فكر كوني. أما حين نجمع القراءة الثانية مع الأولى، فإننا نخرج من الجزئي الموضوعي المحدود إلى الكلي في إطلاقه الكوني بما فيه من ظواهر مرئية وغير مرئية، فكل رفض لما يسمونه بالغيبيات والماورائيات هو رفض للقراءة الأولى، القراءة الكونية - في الوحي - باسم الله خالقاً، فالوحي كلى يستوعب الجزئي والقراءة الأولى تأخذ بعين الاعتبار كل الغيبات والماورائيات على أنها جزء أساسي في المنهج، لا بوصفها مجرد مسلمات يجب الإيمان بها فقط، ولكن بوصفها دليلاً على وجود كوني أكبر من معطيات القراءة الثانية، وهذا ما يعطى الخلق حقيقته الكونية المتكاملة. فاستبعاد الغيبات هو استبعاد للقراءة الأولى التي نجد دلالاتها على مستوى الوجود والخلق الكوني، فهي ليست أساطير أوليين كما يتوهم البعض، بل هي أمور ثابتة بأدلة كافية للتدليل على وجودها، وإذا لم نأخذ بدلالاتها فذلك قد يردنا إلى القراءة الثانية الوضعية المنفردة، فلا يسمح لنا ذلك بمعرفة التاريخ الكوني في معناه الحقيقي. فالقراءة الأولى لا تطلب فقط منا الإيمان بوجود الله، ولكنها توجه إلى ألوهية الله وهيمنة كلماته على التكوين الكوني وارتباط المصير الإنساني بالتخليق الكوني كله، أي منهجية الخلق المستوعبة لمنهجية الأشياء الموضوعية التي نتعلمها بالقلم.

فنجتمع بين منهجية الخلق (بالله خالقاً) ومنهجية الشيئية التي يرصدها
ويسطرها (القلم) فى قراءة كونية واحدة، فيتحقق الإطار الإيماني
الشامل ولا صارت المنهجية قراطيس انتقائية تميل بتحيز ذاتى إلى القراءة
الثانية دون الأولى .

إن العالم ليخرج من أزمته الفكرية والحضارية يحتاج إلى إدراك البعد
الكونى بمعناه الغيبى فى تركيب الوجود ومصيره، وتلك هى مهمة القراءة
الأولى التى تبدو للبعض قراءة يجب استبعادها من الدائرة العلمية، لأنها
قراءة فى الوحي الذى استبعده. وعلينا أن نرد الإنسانية إليه رداً جميلاً .

المهمة كبيرة، والتحدى ضخم، متسع باتساع هذه الكونية، وبدائتها
«الجمع بين القراءتين» وغايتها إنقاذ البشرية ليعم الخير، ويسود الحق
وينتشر الهدى، ويدخل الناس فى السلم كافة، سالكين طريق القرآن .
وتشرق الأرض بنور الإيمان والقرآن . واستمرارنا فى الحوارات العلمية
الهادفة والتطبيقات المنهجية سوف يؤدى إلى إزالة هذه العقبة وغيرها من
العقبات من طريق القرآن إن شاء الله . وتعامل أصحاب التخصصات
المختلفة مع «منهجية القرآن المعرفية» سوف يؤدى إلى الكشف عن جوانبها
الكثيرة، وإقناع العلماء والباحثين بدقتها وسلامتها، وضرورة تفعيلها،
والبناء عليها .

﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف : ٢١] .

خاتمة

وبعد : فهذه قضية « الجمع بين القراءتين » . وإن شئت أطلقت عليها «نظرية . . . » ، قضية تعرض إليها بإيجاز بعض كبار علمائنا أمثال الحارث المحاسبيّ، وأبي طالب المكيّ وإمام الحرمين والفارابيّ والغزاليّ، والرازيّ وابن حزم والقاضي عبد الجبار الهمدانيّ . كما تجذ شذرات تنبه إليها في الموسوعات الأصولية . وتنادى لها الإصلاحيون في إطار اتجاهات «المقاربات الفكرية» للفكر الوافد : الشيخ محمد عبده ومحمد إقبال ومصطفى صبري وغيرهم . فلم تأخذ حظها من التداول بين أهل العلم لتنضج ، وتستوى على سوقها ، وتبرز جوانبها . وزاد في وضع الحواجز بين العقل المسلم ، وإبرازها منهاجاً ، أو محدداً منهاجياً ما عرف «بالإعجاز العلمي» وقد رأيت أن الشقة بين الجمع بين القراءتين والإعجاز العلمي بعيدة جداً .

ولعل من أهم معاصرنا الذين تناولوها الأخ محمد أبو القاسم حاج حمد المفكر السوداني يرحمه الله الذي قدمها في إطار فلسفيّ . ونحن إذ نقدمها لأمة القرآن اليوم - بهذه الحلة مترسّمين خطى من سبقنا فإن لنا

كبير الأمل فى أننا قد أبرزنا أهميتها فى محور «المنهجية القرآنية»، وأظهرنا كونها موضوعاً شديداً الأهمية عظيم الخطر .

وهذه الدراسة على ما بذلنا فيها من جهد نحتسبه عند الله ، فإنها دراسة مختصرة وجيزة استهدفت تنبيه الباحثين من تخصصات مختلفة إلى هذا الموضوع العرفى المهم ، ليتناول الأكفاء منهم جوانبه المختلفة ، وتفصيله المتعددة ، كل من زاوية تخصصه واهتمامه . فذلك ما سوف يبلور هذا الموضوع ، وينضح قضاياها ، ويساعد على تقديمه للباحثين بحسبانته محدداً منهاجياً سوف يساعد بعد ذلك إبرازه وإنضاجه على معالجة كثير من الاشكاليات فى مجالات معرفية متنوعة : فى فلسفة العلوم الطبيعية ، وفى الدراسات الدينية - إن صح التعبير - إضافة إلى المعارف والعلوم الإنسانية والاجتماعية ، وبعض القضايا الفكرية . ولذلك فإننا نهيب بالباحثين الأكفاء أن يعملوا على إنضاج هذا الموضوع المهم ، وبينوا عليه ليستوى على سرقه إن شاء الله - تعالى - ولو بعد حين . والله ولى التوفيق .

قائمة المراجع

- ابن الأثير، المبارك بن محمد الشيباني، جامع الأصول في أحاديث الرسول/
تحقيق محمود الأرناؤوط، رياض عبد الحميد مراد، محمد أديب الجادر؛ إشراف
عبد القادر أرناؤوط. - بيروت: دار ابن الأثير، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.
- الإصلاحى، محمد أجمل محمد أيوب، مفردات القرآن للفراهي وأهميته في علم
غريب القرآن. - المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف،
١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.
- إقبال، محمد، تجديد الفقه الدينى فى الإسلام/ تحقيق عباس محمود العقاد،
مهدي علام. - ط ٢. - القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٨م.
٢٢٧ص.
- الألوسى، محمود شكرى، روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى/
تصحیح على عبد البارى عطية. - بيروت: دار الكتب العلمية،
١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.
- إمام الحرمین، عبد الملك بن عبد الله بن يوسف، الغيائى: غياث الأمم فى التياث
الظلم. - ط ٢. - (د.ن): ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م. ٦١١ص.
- البخارى، محمد بن إسماعيل بن ابراهيم، الجامع الصحيح/ تحقيق مصطفى
ديب. - ط ٣. - دمشق، بيروت: دار ابن كثير، دار اليمامة، ١٤٠٧هـ/
١٩٨٧م.

- البغوى، الحسين بن مسعود بن محمد، تفسير البغوى: معالم التنزيل/ الحسين بن مسعود بن محمد البغوى؛ تحقيق محمد عبد الله النمر، عثمان جمعة ضميرية، سليمان مسلم الحرش. - ط ٤. - الرياض: دار طيبة، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.
- البقاعى، برهان الدين إبراهيم بن عمر بن حسن، نظم الدرر فى بيان تناسب الآيات والسور/ تحقيق عبد الرازق غالب المهدي. - بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.
- البيهقى، أحمد بن الحسين بن على، أحكام القرآن للشافعى/ جمع محمد بن زاهد الكوثرى؛ تحقيق عبد الغنى عبد الخالق. - بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.
- الترمذى، محمد بن عيسى بن سورة، سنن الترمذى، وهو الجامع الصحيح/ تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، عبد الرحمن محمد عثمان. - ط ٢. - بيروت: دار الفكر، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
- ابن الجوزى، عبد الرحمن بن على بن محمد، زاد المسير فى علم التفسير/ تحقيق أحمد شمس الدين. - بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.
- حاج حمد، محمد أبو القاسم، العالمية الإسلامية الثانية: جدلية الغيب والإنسان والطبيعة. - بيروت: دار ابن حزم، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.
- الحارث للمحاسنى، الحارث بن أسد، الرعاية لحقوق الله/ تحقيق عبد الحلیم محمود. - القاهرة: دار المعارف، ١٩٩٠م. ص ٤٣١
- ابن حزم، على بن أحمد بن سعيد، المحلى. - بيروت: دار الآفاق الجديدة، (د.ت).
- ابن حنبل، أحمد بن محمد بن هلال، المسند/ تحقيق أحمد محمد شاكر. - القاهرة: دار الحديث، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

- الخطيب، محمد عجاج السنة قبل التدوين . - ط ٤ . - القاهرة: مكتبة وهبة، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م .
- ابن خلاد، الحسن بن عبد الرحمن الرامهرمزي، أمثال الحديث/ تحقيق عبد العلي عبد الحميد . - بومباي: الدار السلفية، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٣م . ص ٢٧٩ .
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن محمد، المقدمة/ تحقيق على عبد الواحد وافي . - القاهرة: دار نهضة مصر، ٢٠٠٤م .
- الخولي، أمين، التفسير: نشأته، تدرجه، تطوره . - بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٥م . ص ١٠٦ .
- الدارمي، عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل، سنن الدارمي / تحقيق فواز أحمد زمزلي، خالد السبع العلمي . - ط ٢ . - بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م .
- دروزة، محمد عزة، تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم وأحوال وأخلاق ومواقف اليهود وفي عصر النبي صلى الله عليه وسلم وبيته من القرآن الكريم . - بيروت: المكتبة العصرية، ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م . ص ٥٥٠ .
- دروزة، محمد عزة، القرآن والمبشرون . - ط ٣ . - بيروت، دمشق: المكتب الإسلامي، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م . ص ٤٦٣ .
- الذهبي، محمد حسين، الإسرائيليات في التفسير والحديث . - ط ٣ . - القاهرة: مكتبة وهبة، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م . ص ٧٥١ .
- الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، تفسير الرازي/ تحقيق محمد رضوان الداية . - بيروت: دار الفكر المعاصر، ١٤١١هـ / ١٩٩٠م . ص ٥٩٩ .
- الرازي، محمد بن عمر بن الحسين، المحصول في علم أصول الفقه/ تحقيق طه جابر العلوانى . - الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م .

- _____ : مفاتيح الغيب . - القاهرة: المطبعة العامرة الشرفية، ١٣٢٤هـ .
- الزركشى، محمد بن بهادر بن عبد الله البرهان فى علوم القرآن/ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . - ط٢، منقحة . - بيروت: دار المعرفة، ١٣٩١هـ/ ١٩٧٢م .
- السيوطى، عبد الرحمن بن أبى بكر بن محمد، الإبتقان فى علوم القرآن/ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . - بيروت: المكتبة العصرية، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م .
- الشافعى، محمد بن إدريس بن العباس الرسالة/ تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر . - القاهرة: مطبعة البابى الحلبي، ١٣٠٩هـ . ص ٦٧٠ .
- صبرى، مصطفى، موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين . - بيروت: دار إحياء التراث العربى، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م .
- الطباطبائى، السيد محمد حسين، الميزان فى تفسير القرآن . - قم: جماعة المدرسين فى الحوزة العلمية، ١٤١٧هـ .
- الطبرى، محمد بن جرير بن يزيد، تفسير الطبرى/ تحقيق بشار عواد معروف، عصام فارس الحرسانى . - بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م .
- الطوسى، محمد بن الحسن بن على التبيان فى تفسير القرآن/ تقديم أغا بزرك الطهرانى . - بيروت: دار إحياء التراث العربى، (د.ت) .
- الطيالسى، سليمان بن داود بن الجارود، مسند أبى داود الطيالسى/ تحقيق محمد بن عبد المحسن التركى . - القاهرة: هجر، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م .
- ابن عاشور الطاهر، محمد الطاهر بن محمد بن عبد القادر، تفسير التحرير والتنوير . - تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م . ٣٠ج .
- عبد الخالق، عبد الغنى، حجية السنة . - بيروت: دار القرآن الكريم، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م، ص ٥٩٨ .

- ابن العربي، محمد بن علي بن محمد، أحكام القرآن/ تحقيق محمد عبد القادر عطا. - بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.
- العوانى، رقية طه جابر، أثر العرف في فهم النصوص: قضايا المرأة أمودجاً. - دمشق: دار الفكر، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- العلوانى، طه جابر، إشكالية الردة. - القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٣م.
- الغزالى، محمد بن محمد بن محمد، إحياء علوم الدين. - دمشق: دار قتيبة، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.
- الفارابى، محمد بن محمد بن طرفان، التنبيه على سبيل السعادة/ تحقيق جعفر آل ياسين آل سعود. - بيروت: دار المناهل، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م. ، ص ١١١.
- الفراهى، عبد الحميد، إمعان فى أقسام القرآن. - دمشق: دار القلم، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م. ، ص ١٤٧.
- فياض، محمد جابر، الأمثال فى القرآن الكريم. - بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٨٨م. ص ٥١١.
- ابن قيم الجوزية، إعلام الموقعين عن رب العالمين/ تحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي. - بيروت: دار الكتاب العربى، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.
- _____: بدائع الفوائد/ تصحيح محمد منير الدمشقى. - بيروت: دار الكتاب العربى، (د.ت).
- ابن كثير، إسماعيل بن عمر البصرى، تفسير القرآن العظيم/ تحقيق سامى بن محمد السلامة. - ط٢ - الرياض: دار طيبة، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.
- ابن كثير، إسماعيل بن عمر البصرى، فضائل القرآن/ تحقيق حجازى بن محمد بن شريف. - القاهرة: مكتبة ابن تيمية، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م. ص ٣١٢.

- الماوردي، علي بن محمد بن حبيب، الأحكام السلطانية والولايات الدينية/ تحقيق عصام فارس الحرساني، محمد إبراهيم الزغلي .- بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م. ص ٤٠٦.
- محمد عبده، بن حسن خير الله، الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده/ تقديم محمد عمارة .- بيروت: المؤسسة العربية، ١٩٨٠م.
- مسلم بن الحجاج بن مسلم، صحيح مسلم بشرح النووي/ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي .- بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.
- ناصف، مصطفى، مسئولية التأويل .- القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
- نعناعة، رمزي، بدع التفاسير في الماضي والحاضر .- الرياض: مؤسسة الأنوار، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧١م. ص ٩٨.
- الهيثمي، علي بن أبي بكر بن سليمان، جمع الزوائد ومنبع الفوائد/ تحقيق حسين سليم أسد الداراني .- دمشق: دار المأمون للتراث، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م. ص ٤٧٩
- ابن الوزير، محمد بن إبراهيم بن علي، ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان .- بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م. ص ١٧٣.

التعريف بالمؤلف

طه جابر العلوانى

- * من مواليد العراق عام ١٣٥٤هـ - ١٩٣٥م.
- * ليسانس من كلية الشريعة والقانون، جامعة الأزهر عام ١٣٧٨هـ - ١٩٥٩م.
- * ماجستير كلية الشريعة والقانون، جامعة الأزهر عام ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.
- * دكتوراه أصول الفقه، كلية الشريعة والقانون، جامعة الأزهر ١٣٩٢هـ - ١٩٧٣م.
- * عضو مجمع الفقه الإسلامى الدولى بجدة.
- * شارك فى تأسيس المعهد العالمى للفكر الإسلامى فى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
- * رئيس المجلس الفقهى لأمريكا الشمالية.
- * رئيس جامعة العلوم الإسلامية والاجتماعية G.SISS فى الولايات المتحدة.

بعض آثاره

- ١- تحقيق كتاب «المحصول من علم أصول الفقه» لفخر الدين الرازى، ستة مجلدات.

- ٢- الاجتهاد والتقليد فى الإسلام .
- ٣- أصول الفقه الإسلامى : منهج بحث ومعرفة .
- ٤- التعددية : أصول ومراجعات بين الاستيعاب والإبداع .
- ٥- الأزمة الفكرية ومناهج التغيير .
- ٦- أدب الاختلاف فى الإسلام .
- ٧- إسلامية المعرفة بين أمس واليوم .
- ٨- حاكمية القرآن .
- ٩- الجمع بين القراءتين .
- ١٠- مقدمة فى إسلامية المعرفة .
- ١١- إصلاح الفكر الإسلامى .
- ١٢ - نحو منهجية معرفية قرآنية .
- ١٣ - مقاصد الشريعة .
- ١٤ - القيم العليا الحاكمة : التوحيد .

رقم الإيداع ٢٠٠٥/٢٢٥٥٤

الترقيم الدولى 977-09-1477-0 - I.S.B.N.